

الدكتور مصطفى الغزوي

ثقافة الحج

عبادة وأخلاق، فن وانضباط

الكتاب ، ثقافة الحج
عبادة وأخلاق، فنّ وانضباط
المؤلف ، الدكتور مصطفى لعزوزي
الناشر، دار الكتب العلمية – بيروت
عدد الصفحات، 96
سنة الطباعة، 2006 م
بلد الطباعة، لبنان
الطبعة، الأولى

Title : **Ṭaqāfat al-Hajj**
(Culture of the pilgrimage (Hajj)
to Mecca
cult, ethics , technique and disciplina)
Author : Dr. Mostafa laazouzi
Publisher : Dar Al-kotob Al-Ilmiyah
Pages : 96
Year : 2006
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

بجميع الحقوق محفوظة
2006م - 1427 هـ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول الله عز وجل في كتابه العزيز:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾

سورة آل عمران الآية: 97

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق »

رجع كيوم ولدته أمه»

رواه البخاري

مقدمة

الحمد لله الذي جعل بيته الحرام مثابة للناس وأمانا، وجعل من مقام إبراهيم آية بينة ومصلى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾⁽¹⁾، وأمر إبراهيم خليله أن يؤذن في الناس بالحج وأن يطهر بيته للطائفين والركع السجود، وللقائمين والعاكفين على مر الأزمنة والعهود، أوجب على المستطيع حجه، وكتب على عباده وفادته، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾⁽²⁾، فامثلوا لأوامره، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته الطائفين حول عرشه. وأشهد أن لا إله إلا الله، الغفور الرحيم الودود، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، خير من حج بيت الله الحرام، قال صلى الله عليه وسلم: «خذوا عني مناسككم»⁽³⁾، وكان أسوة حسنة للأئمة، اللهم صل عليه وعلى آله والتابعين لهم بإحسان إلى يوم العرض عليك والقيام.

أما بعد، إن كل فريضة من فرائض الإسلام هي عبادة لله جل وعلا في الزمان والمكان، والحج إحدى هذه العبادات المتميزة في زمان معين هو شهر ذي الحجة ومكان معين هو مكة المكرمة، وهذا النظام في الزمان والمكان يجعل من الحج عبادة تحتاج إلى ثقافة تقوم على الإخلاص والأخلاق والانضباط والفن حتى تؤدي هذه الشعيرة الإسلامية العظيمة على الوجه الأكمل.

إن لكل منسك من مناسك الحج ثقافة تجمع بين العبادة الخالصة والأخلاق الحسنة والانضباط والفنية في الأداء، بدءا من الاغتسال والنظافة والإحرام والتلبية، ومرورا بالطواف حول الكعبة والصلاة خلف مقام إبراهيم وشرب ماء زمزم والسعي بين الصفا والمروة وحلق شعر الرأس أو تقصيره والإقامة بمنى والوقوف بعرفة والنزول بمزدلفة أو المبيت بها ورمي الجمرات والهدي وانتهاء بالتحلل من الإحرام.

(1) سورة البقرة، الآية: 125

(2) سورة آل عمران، الآية: 97

(3) رواه مسلم

ولتوضيح هذه الثقافة وإبراز مقاصد ودلالات وحكم ومعاني هذه المناسك والأعمال، فقد سطرت هذه الكلمات في هذا الكتاب وسميته: « ثقافة الحج: عبادة وأخلاق، فن وانضباط » وقسمته إلى خمسة فصول، وقد خصصت الفصل الأول منها للتعريف بالحج ومميزاته والثقافة وأهميتها والعبادة وطبيعتها والأخلاق ومظاهرها والفن وتجلياته، وتناولت في الفصل الثاني الاغتسال والنظافة وصلاة ركعتين والإحرام والتلبية، وتحديث في الفصل الثالث عن الطواف بالكعبة والصلاة خلف مقام إبراهيم وشرب ماء زمزم والسعي بين الصفا والمروة ثم حلق شعر الرأس أو تقصيره، أما الفصل الرابع فقد تكلمت فيه عن المبيت بمُنى والوقوف بعرفة ثم النزول بمزدلفة أو المبيت بها، وتناولت في الفصل الخامس كل من رمي الجمرات والهدي ثم التحلل من الإحرام، وفي كل فصل من هذه الفصول قمت بإبراز دلالات ومعاني ومقاصد هذه المناسك، والله أسأل أن يتقبل منا أعمالنا ويجعلها خالصة له، وفي ميزان حسناتنا يوم نلقاه، إنه جواد كريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور مصطفى لعزوزي

القنيطرة في 03 جمادى الأولى 1926 هـ

الموافق 10 يونيو 2005م

Email:mostazozhi@hotmail.com

الفصل الأول

الحج ، الثقافة، العبادة، الأخلاق، الفن

- المبحث الأول: الحج تعريفه ومميزاته
- المبحث الثاني: الثقافة تعريفها وأهميتها
- المبحث الثالث: العبادة تعريفها وطبيعتها
- المبحث الرابع: الأخلاق تعريفها ومظاهرها
- المبحث الخامس: الفن تعريفه وتجلياته

المبحث الأول الحج تعريفه وخصائصه

لقد جعل الله الحج فريضة من فرائض الإسلام على كل مسلم بالغ عاقل حر مستطيع ذكراً كان أم أنثى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾⁽¹⁾، وركناً من أركان الإسلام الخمسة، قال صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، لمن استطاع إليه سبيلاً»⁽²⁾، استطاعة مادية ومعنوية تيسيراً على العباد ورفعاً للحرَج عنهم، ويستحب للمسلم المستطيع أن يؤدي هذه الفريضة في أقرب فرصة ممكنة، استناداً إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أراد الحج فليتعجل، فإنه قد يمرض المريض وتضل الدابة وتعرض الحاجة»⁽³⁾، وقد أجمع جمهور أهل العلم أن الحج فرض على الفور وليس على التراخي على كل من يملك الاستطاعة، ولذلك فمن استطاع الحج ولم يعجل فيه كان آثماً، قال عليه الصلاة والسلام: «حجوا قبل أن لا تحجوا»⁽⁴⁾، لأنه قد تفوت المسلم فرصة الحج وفرصة الاستطاعة لعارض من مرض أو فقر أو عجز، ولهذا كان هذا التوجيه النبوي الشريف.

ولما كان الحج عبادة تجمع بين نفقة المال وتحمل مشقة السفر وتعب البدن، فقد جعله الله سبحانه وتعالى من أفضل العبادات وأكثرها ثواباً وأعظمها أجراً، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال فقال: «إيمان بالله ورسوله، ثم جهاد في سبيله، ثم حج مبرور»⁽⁵⁾، والحجاج هم وفد الله وفي ضيافته، قال عليه الصلاة والسلام: «الحجاج والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم»⁽⁶⁾، وهكذا يتطهر الحاج من ذنوبه السالفة، عازماً على الاستمرار في طاعة الله جل وعلا في مستقبل أيامه، والمسلمون جميعاً مطالبون بالإفادة من روح هذه الفريضة ومقاصدها

(1) سورة آل عمران، الآية: 97

(2) رواه مسلم

(3) رواه أحمد وابن ماجه والبيهقي

(4) رواه الحاكم والبيهقي

(5) رواه البخاري

(6) رواه ابن ماجه

الرفيعة، وبأداء شعائر الحج على سبيل التعظيم والإجلال، والمحبة والافتقار، والخضوع لله رب العالمين، بثقافة في العبادة و حسن سمت في الأخلاق وجمالية في السلوك وفنية في الأداء.

أ - تعريف الحج:

الحج لغة هو: «القصْد، وحج إلينا فلان أي قدم، وَحَجَّهَ يَحُجُّهُ حَجًّا: قصده، وَحَجَّجْتُ فلانًا، أي قصدته، ورجل مَحْجُوجٌ أي مقصود، وقد حَجَّ بنو فلان فلانًا، إذا أطالوا الاختلاف إليه، قال الشاعر:

وَأَشْهَدُ مِنْ عَوْفٍ حُلُولًا كَثِيرَةً يَحُجُّونَ بَيْتَ الزَّبْرِقَانِ الْمَرْغَفَا

أي يزورونه ويقصدونه، ويكثرّون الاختلاف إليه»⁽¹⁾، والحج يعني كذلك: «الزيارة والإتيان، وإنما سمي حاجا بزيارة بيت الله تعالى»⁽²⁾، كما أن: «الحجَّ، والحجَّ: اسم ومصدر، ويوم الحج الأكبر: يوم النحر، ويوم عرفة، وروي أن العمرة: الحج الأصغر، والحجَّ: حجة واحدة، والحجَّ أشهر معلومات هي: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، وقال الفراء: معناه: وقت الحج هذه الأشهر»⁽³⁾.

وأما الحج اصطلاحاً فهو: «القصْد إلى مكة للنسك والحج إلى البيت خاصة»⁽⁴⁾، أي: «قصْد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضاً وستة»⁽⁵⁾، فالحج إذن هو قصد مكة المكرمة لأداء عبادة الطواف حول البيت والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة والقيام بسائر المناسك استجابة لأمر الله تعالى وابتغاء مرضاته، وهذه المناسك هي عبارة عن أعمال مخصوصة تؤدي في زمان مخصوص ومكان مخصوص على وجه مخصوص، وللحج شروط وأركان وواجبات، يجب أن يتعرف عليها كل مسلم لكي يؤدي مناسك الحج أداء صحيحاً، وكما وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم، الذي أمرنا بذلك فقال عليه الصلاة والسلام: «خذوا عني مناسككم»⁽⁶⁾.

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة « حج »، ج 2، ص: 226

(2) المرجع نفسه، ص: 226

(3) ابن منظور، لسان العرب، مادة « حج »، ج 2، ص: 226

(4) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، كلمة « حج »، ج 1، ص: 52

(5) ابن منظور، المرجع نفسه

(6) رواه مسلم

ب - مميزات الحج:

إن مميزات الحج كثيرة ومن أهمها التطهير من الذنوب، قال صلى الله عليه وسلم: «من حج هذا البيت فلم يفسق ولم يرفث، رجع كيوم ولدته أمه»⁽¹⁾، حيث يتطهر الحاج مما تقدم من ذنوبه ويتوب من معاصيه ويعزم على أن يكون حاضره أحسن من ماضيه ومستقبله أحسن من حاضره، والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها مدعوون جميعاً للإفادة من روح هذه الفريضة ومقاصدها الرفيعة.

ومن مميزات الحج المبرور أنه يكون سبباً في دخول الحاج إلى الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»⁽²⁾، وهو الحج الذي لا رفث فيه ولا فسوق ولا جدال، فالحج مدرسة يتعلم فيها المسلم أخلاقاً وخصالاً حميدة كالصبر وتحمل الأذى والحلم والصفح عن الناس والمحافظة على الصلوات في أوقاتها في المسجد.

كما يتميز الحج بتدريب الحاج على التجرد إلى الله والدار الآخرة وترك هموم الدنيا وملاهيها وزخارفها، وهذه الدروس تزكي نفسه وترفع من شأنها وتخرجها من مستنقع الكبر والغرور إلى رياض التواضع وخفض الجناح لإخوانه المؤمنين، لأن في الحج يتجمع المسلمون من كل حذب وصوب في زمن واحد ومكان واحد دون أي تمايز بين شعب وآخر أو بين فرد وغيره.

ويتميز الحج كذلك بخاصية المنافع الدينية والدنيوية، قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ ۖ أَلَّا تَعْلَمَ﴾⁽³⁾، فقد أحل الله فيه البيع والشراء، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾⁽⁴⁾، فهي تجارة مع الخلق ومع الخالق تجارة مضمونة وربحها كثير، قال صلى الله عليه وسلم: «النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله، الدرهم بسبع مائة درهم»⁽⁵⁾، فهذه الميزة جمعت للمسلم بين دينه ودنياه، بين عبادة الجوارح وعبادة

(2) رواه البخاري ومسلم

(4) سورة البقرة، الآية: 198

(1) رواه البخاري ومسلم

(3) سورة الحج، الآية: 28

(5) رواه البيهقي

القلب لتجعل منه عبداً حقيقياً لله يؤدي مناسكه لربه العظيم تعبداً وطاعة ورقاً.

والحج شعيرة إسلامية تجمع جميع المسلمين بمختلف مشاربهم وتنوع ألوانهم وأعراقهم في زمان واحد ومكان واحد وتحت سماء واحدة ولهدف واحد وغاية واحدة، كما يجمع كل جهات العالم شرقه وغربه وشماله وجنوبه لتنصهر كل هذه الثقافات والأعراق والألوان في بوتقة واحدة، هي بوتقة الإيمان الخالص ثقافة والإنسان المؤمن عرقاً والبياض الناصع لوناً، ليتحقق الهدف الأسمى من هذا التنوع والاختلاف في الشكل واللون واللغة، إنه هدف التعارف قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ﴾⁽¹⁾. إن هذا التنوع آية من آيات الله التي توجد في الحج ولا توجد في سواه، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنَكْمَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾، ففي الحج تجد هذه الآية تحقيقها وحقيقتها، فالمسلمون باختلاف ألسنتهم وألوانهم يلبون دعوة ربهم إلى بيته العتيق وأرضه الحرام ليشكروا الله على نعمه، وليلتقوا بإخوانهم القادمين من مختلف أصقاع الأرض، وليجددوا في كل سنة اكتشاف تميزهم كأمة إيمانية واحدة، وإن تعددت أعراقها وثقافتها وألوانها، وليعززوا مشاعر اعتزازهم بانتمائهم لهذه الأمة، وليفخروا بهويتهم الإسلامية وبعظمة هذا الدين الذي جاء به سيد الخلق أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم، ليكون النور الذي سطع من هذه الأرض، فعم ضياؤه المعمورة كلها وبعث الدفء في القلوب وملأ النفوس بالإيمان والأرواح بالطمأنينة والسلام.

وفي مدرسة الحج يتعلم الحاج المساواة بين الناس جميعاً، لا تفضيل بينهم في الأنساب والأعراق والمناصب، ولا فضل لأبيض على أسود ولا لغني على فقير ولا لصحيح على سقيم، إنما التفاضل بالتقوى والعمل الصالح، وإنما تجمعهم في هذه المشاعر وحدة العقيدة لا شيء سواها، فإذا كان الناس يتفاضلون في دنياهم في الغنى والصحة والجاه إلى غير ذلك من متاع الدنيا، فالحج يعلن في صمت عن هذه المساواة

(1) سورة الحجرات، الآية: 13

(2) سورة الروم، الآية: 22

بينهم، يقول أحد الشعراء:

أَرَى النَّاسَ أَصْنَافًا، وَمِنْ كُلِّ بَقْعَةٍ إِلَيْكَ انْتَهَوْا مِنْ غُرْبَةٍ وَشَتَاتٍ
سَاوَوْا فَلَا الْأَنْسَابُ فِيهَا تَفَاوُتٌ لَكَ ذِيكَ، وَلَا الْأَقْدَارُ مُحْتَئِلَاتٌ

فإن الله عز وجل لم يجعل من الحج شعيرة للتعبد فحسب، وإنما جعل منه أيضا مناسبة يجتمع فيها المسلمون من كل حذب وصبوب، ليكتشفوا عظمة الإسلام الذي جمع في بدايته بين بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وأبي ذر العربي وغيرهم، ويجمع اليوم بين هذه الأجناس والألوان المتباينة والألسن المختلفة، قد اجتمعت أفكارهم وأجسادهم وعقولهم وقلوبهم على غاية واحدة وفي اتجاه واحد هو اتجاه العبودية لله رب العالمين. إنها بحق لوحة تتيح للمتأمل الغوص في أعماق هذا الدين العظيم وتهيئ للناظر سبر أغواره لينهل من شرائعه الربانية العادلة وقيمه الإيمانية الغنية ومعانيه الإنسانية النبيلة.

إن الحج يبعث الأمل في نفوس المسلمين بالمغفرة ويبعد عنهم القنوط من رحمة الله التي وسعت كل شيء، فكل أمل الحاج هو أن يتقبل الله منه حجه ويجعله حجا مبرورا، لأن الحج المبرور جزاؤه الجنة، وهو الذي لا رفث فيه ولا فسوق ولا جدال.

ولأن الشيء بالشيء يذكر فإن الحج يذكر الحاج بلقاء الله والسفر إليه، فالحاج يعتبر في رحلة إلى الله، وهذا من شأنه أن يرفع من معنوياته الإيمانية لكي يجتهد في طاعة مولاه، وذلك بالتقرب إليه بالأعمال الصالحة والتزود للرحلة الطويلة والسفر البعيد، وما دامت رحلة الحج تتطلب زادا ماديا ومعنويا، فالرحلة إلى الله تحتاج هي الأخرى إلى زاد، وخير هذا الزاد التقوى، فالحج يذكر بالآخرة والرحلة إليها ويعين عليها والتزود لها وكل هذا من مميزات هذه الشعيرة العظيمة.

المبحث الثاني الثقافة تعريفها وأهميتها

لا نعني هنا بالثقافة ما يقابلها تماماً في اللغة الفرنسية يعني: culture أو نفسها في اللغة الإنجليزية، والتي تعني: المعرفة والتكوين والتربية والرعاية فحسب، ولكن نعني بذلك أيضاً مفهوم الثقافة الشامل الذي يضيف إلى معاني هذه الألفاظ معاني ألفاظ أخرى مثل: الأخلاق والفن والجمالية والصبر والحلم...، لأن الثقافة بدون هذه المعاني تبقى جافة وغلظة وفارغة من كل محتوى أو مضمون. ولعل الوقوف عند مصطلح الثقافة والتأمل في جانبه اللغوي وجانبه الاصطلاحي من شأنه أن يعطينا نظرة شاملة حول معنى الثقافة بمفهومها المادي والمعنوي، ذلك المفهوم الذي نعنيه هنا ونشده ونتمنى أن يتحلى به المسلم في حياته كلها، بل ويطبّع به عباداته وشعائره كلها بصفة عامة، وحين يقبل على حج بيت الله الحرام وأداء فريضة الحج بصفة خاصة.

أ - تعريف الثقافة:

الثقافة لغة مشتقة من: «تَقِفَ الشيء، تَقِفًا، وَتَقَافًا، وَتَقُوفَةً: حَدَقَهُ، وَرَجَلَ تَقِفًا، وَتَقِفًا، وَتَقِفًا: حَاقِقَ فَهْمًا، وَغَلَامٌ لَقِنَ تَقِفًا أَي ذُو فُطْنَةٍ وَذَكَاءٍ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ ثَابِتُ الْمَعْرِفَةِ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ»⁽¹⁾، وَيَقَالُ: «شَابَ تَقِفًا لَقِنًا: أَي فَهِمَ حَسَنًا»⁽²⁾.

وأما الثقافة اصطلاحاً فهي: «ما يميز المجتمع الإنساني عن التجمعات الحيوانية، من لغة وتراث وسلوك واتجاهات تنتقل إلى الأجيال المتعاقبة»⁽³⁾. كما أن الثقافة هي أيضاً ذلك: «الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والعادات وغيرها.. التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في جماعة وفي مجتمع ما»⁽⁴⁾، أو هي كما نفهمها من كلام مالك بن نبي - رحمه الله -، عبارة عن مجموعة من الصفات الخلقية

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج 9، ص: 19

(2) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج 1، ص: 216

(3) - E. Taylor: Primitive culture, London, 1973, p: 3

(4) كنعان فهد، علم الاجتماع الثقافي، الأنترنت، موقع: www.google.com

والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعورياً هي تلك العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فمفهوم الثقافة إذن مفهوم شامل يجمع بين القلب والقلب، بين المعرفة والإدراك وحسن السلوك والأخلاق الطيبة الحسنة.

ب - أهمية الثقافة:

تتجلى أهمية الثقافة في كونها تجمع بين ما هو مادي وما هو معنوي، وهي بالإضافة إلى أنها وعي معرفي وفطنة وذكاء وحذق، فإنها تمتاز ببعدها الجمالي والفني والحضاري الذي يليق بالإنسان وتكريمه لحمل أمانة الاستخلاف في الأرض وتعميرها وإقامة العدل في ربوعها ونشر المحبة والأخوة بين أفرادها، فالثقافة تعينه على فن الاستخلاف واثقان أخلاق العمارة في الأرض، وتعينه كذلك على جمالية السلوك في حمل الأمانة التي كلف بحملها على الوجه المطلوب.

إن الثقافة التي نقصدها هنا تتأسس ليس على معرفة مقاصد الحج وأهدافه فحسب، وإنما تقوم على معرفة دلالات ومعاني مناسكه وأعماله أيضاً، ففي كل واحد من أفعال الحج وأعماله تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر، وهذه الثقافة مزدوجة وتتكون من جانبين هما: الجانب السلوكي العملي المادي والجانب العقدي الفكري الروحي. والمسلم مطالب أن يجمع بين الجانبين حتى تحصل الإفادة من الحج ويحصل المقصود منه أيضاً، وهو تطهير القلب من الشرك والجوارح من الذنوب لتحصل المغفرة الشاملة، قال عليه الصلاة والسلام: « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »⁽¹⁾، وقال عز وجل: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾⁽²⁾، إنه تطهير للقلوب والعقول من الشرك من جهة، وتطهير للأبدان والجوارح من الأوساخ والنجاسات من جهة أخرى، وذلك حتى يتمتع المسلمون بالطهارتين معاً، وحين تلتقي طهارتهم الروحية والجسدية بطهارة ذلك المكان المبارك تحصل تمام الطهارة وتتحقق العبادة التي يحبها الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ

(2) سورة الحج، الآية: 26

(1) رواه البخاري ومسلم

(3) سورة البقرة، الآية: 222

تُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ⁽¹⁾، نعم يحبهم لأنهم جمعوا بين طهارة الروح وطهارة الجسد، وهذه هي الطهارة التي يهدف إليها الحج ومن أجلها شرع وأهميتها في حياة المسلم عظيمة وعند الله أعظم.

(1) سورة التوبة، الآية: 108

المبحث الثالث

العبادة تعريفها وطبيعتها

لقد خلق الله الإنسان في هذه الأرض ليعبده ويوحده ويخلص له العبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾⁽¹⁾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾⁽²⁾، وهذه العبادة شاملة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽³⁾، فلم يكتف بالصلاة والنسك كشعائر تعبدية، وإنما جعل الحياة كلها عبادة، بل إن الممات عبادة إذا خلصت فيه هو الآخر النية.

أ - تعريف العبادة:

العبادة لغة مشتقة من عَبَدَ، يَعْبُدُ، عِبَادَةٌ، وَعُبُودِيَّةٌ وتعني: «الطاعة وإظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الأفضال وهو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾»⁽⁴⁾، فالعبادة إذن تتضمن لغة معنى الخضوع والتذلل والطاعة والامتثال، وكل هذه الألفاظ قريبة في المعنى.

وأما العبادة في الاصطلاح فهي: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمساكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة»⁽⁵⁾، وهذه نظرة عميقة وشاملة للعبادة، فإلى جانب معناها اللغوي وهو غاية

(2) سورة البينة، الآية: 5

(1) سورة الذاريات، الآية: 56

(4) ابن منظور، لسان العرب، ج 10، ص: 498

(3) سورة الأنعام، الآية: 162

(5) أحمد بن تيمية، العبودية، المكتب الإسلامي، بيروت، 1397، ص: 38

الطاعة والخضوع والامتثال هناك عنصر جديد له أهمية كبرى ولا تتحقق العبادة إلا به، ألا وهو عنصر الحب، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾⁽¹⁾، فالطاعة والعبادة دليل على المحبة والمعصية مع زعم المحبة ادعاء باطل، يقول أحد الشعراء:

تُعْصِي الْإِلَهَ وَتَدْعِي حُبَّهُ هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَّاسِ مُحَالُ
لَوْ كُنْتَ حَقًّا تُحِبُّهُ لِأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فبدون هذا العنصر العاطفي والوجداني لا تتحقق الطاعة ولا العبادة التي خلق الله من أجلها العباد وأنزل معهم الكتب.

ب - طبيعة العبادة:

إن العبادة في الإسلام لا تتعلق بالجسد فحسب، وإنما تتعلق بالروح أيضاً، والإنسان في حاجة إليها لأنها غذاؤه الروحي والجسدي. وهذه العبادة تتم بالاتصال المباشر مع الله دون وسيط ولا تكون إلا بما شرعه بحيث لا مجال للزيادة فيها أو النقص.

والعبادة في الإسلام ذات طبيعة شمولية وتمتاز بالوسطية والتوازن والاعتدال بالإضافة إلى التيسير وسهولة التطبيق ورفع الحرج وتنظيم علاقة الإنسان بربه وب نفسه وبالأخرين وبالكون كله. فهي تربية دينية ونفسية واجتماعية، كما أنها إشباع سليم لحاجة الروح الفطرية من التعبد والتوجه نحو الخالق جل وعلا بالتأله والحب.

والعبادة في الإسلام يطبعها كذلك الاتقان والجمالية والتحسين في جميع شعائر هذا الدين. لتأمل مثلاً شعيرة الصلاة، فهي كلها اتقان وجمالية وتحسين وقوفاً وقراءة وركوعاً وسجوداً جلوساً وتشهداً...، والمسلم مطالب بالاتقان والتجميل والتحسين في كل هذه العناصر، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي سماه أهل العلم بالمسيء صلاته بأن يعيدها ثلاث مرات لأنها كانت ناقصة وغير كاملة وتفتقد في كل مرة هذه العناصر، وقد علمه عليه الصلاة والسلام كيفية الاتقان والتجميل

(1) سورة البقرة، الآية: 165

والتحسين في الصلاة وذلك بالاطمئنان في كل عنصر من عناصرها.

بل إن الاتقان والجمالية والتحسين في الصلاة عناصر تبدأ منذ مرحلة الوضوء الذي هو استعداد للصلاة، فكيف إذا تعلق الأمر بأدائها؟. يقول صلى الله عليه وسلم: «من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»⁽¹⁾، فالحسن هنا بمعنى الاتقان والجمالية، أي اتقن وضوءه وجمله بالترتيب والموالة والدلك والفور، ولذلك فالله عز وجل أمرنا بإقامة الصلاة وليس بأداء الصلاة، لأن إقامة الصلاة تقتضي من صاحبها الخشوع والاطمئنان والجمالية والاتقان والحسن في الأداء، حتى وقوف المسلم في صلاته ينبغي أن يكون وقوفاً فيه استقامة واعتدال وانتصاب للأعضاء، وكذلك حركاته الجسدية من ركوع وسجود وجلوس وحتى حركاته اليدوية من رفع وقبض وسدل وتشهد، فقد علم جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم كيفية إقام الصلاة قائلاً له: «إذا تحرمت للصلاة، ارفع يدك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السماوات السبع، وإن لكل شيء زينة، وزينة الصلاة رفع اليدين»⁽²⁾، فبين له عليه السلام أن لكل شيء زينة أي جمالاً وحسناً في الأداء، وجمال الصلاة وتزينها هو رفع اليدين، فالتزين هنا بمعنى الجمالية والحسن في الأداء.

إن هذا الأداء المتقن والجميل والحسن في الصلاة ينبغي على معرفة بأسرار هذه الشعيرة العظيمة، فالصلاة ليست حركات جسدية فحسب، ولكنها حركات روحية تسري فيها الحياة أيضاً، حينما يستحضر فيها المسلم نية العبادة والتقرب إلى الله جل وعلا. كما أن قراءة القرآن الكريم وحسن ترتيله والاتقان في تجويده مطلوب من المسلم، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»⁽³⁾؟، أي من لم يحسن صوته بالقرآن ويزينه، وفي الحديث الشريف عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: «لو رأيته يا أبا موسى وأنا أسمع قراءتك البارحة، لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود، قال: قلت: والله يا رسول لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحبرته لك تحبيراً»⁽⁴⁾، فالتغني بالقرآن وتحبيره يعني اتقانه وتزينه وتحسينه، بهدف فهم معانيه وتدبر مراد الله فيه، منهج نبوي شريف، أليس تجويد القرآن هو الإتيان بالجيد،

(2) رواه الحاكم

(4) رواه مسلم

(1) رواه مسلم

(3) رواه البخاري ومسلم

وذلك بتحسين الصوت وإخراج حروفه من مخارجها الصحيحة؟. أليس هذا ضرب من ضروب الفن؟ ألا يتحدث القراء عن ما يسمى بفن التجويد؟. وهكذا بالنسبة لسائر الشعائر التعبدية والعبادات من صيام وزكاة وحج وغيرها كلها تحتاج إلى تحسين وتزيين وجمالية وفنية في الأداء مع الإخلاص واستحضار نية التعبد لله عز وجل.

المبحث الرابع الأخلاق، تعريفها ومظاهرها

جاء الإسلام للبشرية ليصلح أخلاقها ويقومها ويحسن سلوكها ويعدها، ولقد نوه بالخلق الحسن ودعا إلى تربيته في المسلمين، فقد تكرر مدح الأخلاق وحسن الخلق في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في غير ما موضع، كقول الله تعالى في مدح خير البرية محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁽¹⁾، وقد حض الإسلام على محاسن الأخلاق بين الناس، قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾⁽²⁾، وقد جعل الإسلام الأخلاق الحسنة سببا في الفوز برضوان الله وبجناته، فقال عز وجل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۚ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾⁽³⁾، وحضنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأخلاق الحسنة، فقال: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق»⁽⁴⁾، كما جعل صلى الله عليه وسلم كمال الإيمان وتماحه في حسن الخلق، فقال: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا»⁽⁵⁾، وبين لنا أن حسن الخلق عبادة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»⁽⁶⁾، وأخبرنا صلى الله عليه وسلم، أن حسن الخلق تثقل الميزان يوم القيامة، فقال: «ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»⁽⁷⁾، وقد بعث عليه أفضل الصلاة والسلام، لإتمام الأخلاق، فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»⁽⁸⁾، ولما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلقه عليه الصلاة والسلام، قالت: «كان خلقه

(2) سورة فصلت، الآية: 34

(4) رواه الترمذي

(6) رواه أبو داود

(8) رواه البخاري

(1) سورة القلم، الآية: 4

(3) سورة آل عمران، الآيات: 133 - 134

(5) رواه أحمد وأبو داود

(7) رواه أحمد وأبو داود

القرآن»⁽¹⁾. وإذا كانت هذه الأحاديث تنوه بحسن الخلق وتحض عليه وتأمّر به، فقد جاءت أحاديث أخرى تذم سوء الخلق وتنهى عنه، بل كان عليه الصلاة والسلام يستعين بالله من سوء الخلق ويسأله حسن الخلق، كقوله: «اللهم حسن خلقي كما حسنت خلقي»⁽²⁾، وكان من هديه صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستفتاح في الصلاة، قوله: «اللهم اهْدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، وقني سيئ الأعمال وسيئ الأخلاق، لا يقي سيئها إلا أنت»⁽³⁾، وما ذلك إلا لما لحسن الخلق من مكانة عظيمة في الإسلام، وما له من أجر كبير عند الله عز وجل.

أ - تعريف الأخلاق:

الأخلاق لغة مشتقة من خَالَق يُخَالِقُ أخلاقاً وخُلُقاً وخُلُقاً، وخَالَقَ القوم: يعني عاشرهم بخلق حسن، وتخلق بأخلاقه أي تطبع بطباعه، وتخلق بغير خُلُقِه أي تكلف ما ليس من خُلُقِه، ومنه: ليس التَّخَلُّقُ بالأخلاق كالتَّخَلُّق، أي ليس من تكلف ما ليس له من الخلق، كمن كان الخلق فيه طبعاً وسجية، فمن معاني الخلق، والخلق: «السجية، والطبع، والمروءة، والدين»⁽⁴⁾.

وأما الأخلاق في الاصطلاح فهي: «هيئة راسخة في النفس، تصدر عنها الأفعال الإرادية الاختيارية من حسنة وسيئة، جميلة وقبيحة، وهي قابلة بطبعها لتأثير التربية الحسنة والسيئة فيها، فإذا رببت هذه الهيئة على إثثار الفضيلة والحق وحب المعروف والرغبة في الخير، وروضت على حب الجميل وكرهية القبيح وأصبح ذلك طبعاً لها، تصدر عنه الأفعال الجميلة بسهولة، ودون تكلف، قيل فيه: خلق حسن، ونعنت تلك الأفعال الجميلة الصادرة عنه، بدون تكلف، بالأخلاق الحسنة»⁽⁵⁾، فالأخلاق الحسنة إذن تجمع بين حسن الصورة الظاهرة والباطنة، بين جمال الجوهر والمادة، بين أدب الجسد والروح وانضباطهما، وأوصافهما ومعانيهما الخيرة.

(1) رواه مسلم

(2) رواه أحمد وابن حبان

(3) رواه النسائي

(4) ابن منظور، لسان العرب، ج 10، ص: 86.

(5) أبو بكر الجزائري، منهاج المسلم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، دون ذكر سنة الطبع، ص:

ب - مظاهر الأخلاق:

إن الأخلاق هي أعمدة المجتمعات وأساسها المتين التي تقوم عليها وتضمن استمرارها في الحياة، وبدون أخلاق تنهار المجتمعات وتندثر، وفي هذا قال الشاعر:

إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمْ دَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ دَهَبُوا

فالأخلاق بالنسبة للمجتمعات كالهواء وكالماء وكالطعام، لا بد لها من ذلك لضمان حياتها ووجودها واستمرارها، فمظاهر الأخلاق تتجلى في بناء المجتمعات والأمم الخيرة وضمان انضباط السلوك وتهذيب المعاملات بين أفراد المجتمع وبين الأمم والشعوب، وقد حض الإسلام على الأخلاق الحسنة والانتصاف بها وجعلها متممة ومكملة لإيمان المسلم، فجاءت تعاليم الإسلام مرغبة تارة في حسن الخلق ومرهبة تارة أخرى من سوء الخلق، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾⁽¹⁾، فحسن الخلق يقتضي من صاحبه القدوة الحسنة المبنية على مطابقة الأقوال للأفعال كما عبر عن ذلك الشاعر بقوله:

لَا تُنَنِّ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وما ذلك إلا لأنه من تمام حسن الخلق عدم مخالفة القول للعمل ومناقضته للتصرف والسلوك، فهو بالإضافة إلى كونه عاراً فهو خلق سيء يرفضه الإسلام وينهى المسلمين عنه.

(1) سورة الصف، الآيات: 2-3

المبحث الخامس الفن تعريفه وتجلياته

يعتبر الفن عنصرا مهما في حياة الإنسان، وذلك لأن الوجود وما فيه من مخلوقات يقوم على هذا العنصر، فالكون كله مُتفنن فيه من قبل الله عز وجل الذي أحسن وأتقن كل شيء خلقه. وهو سبحانه وتعالى الذي أمرنا بعبادته وابتقان هذه العبادة وتحسينها قولاً وعملاً، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾⁽¹⁾، فالكلام لا يكون طيباً إلا إذا كان حسناً وجميلاً وكذلك العمل الصالح لا يكون كذلك إلا إذا كان عملاً حسناً وجميلاً ومتقناً، لأن الحسن والجمالية والاتقان من خصوصيات العمل الصالح، والحج عبادة تتطلب من المسلم بالإضافة إلى الإخلاص فيها لله عز وجل الاتقان والإبداع والتحسين لكي تكون هذه العبادة طيبة وصالحة ومقبولة.

أ - تعريف الفن:

الفن في اللغة واحد الفنون وهي: «الأنواع، والفن: الحال، والضرب من الشيء، والجمع أفنان وفنون»⁽²⁾، والفن هو: «التزيين»⁽³⁾، والفنون: «الأساليب وهي: أجناس الكلام وطرقه، ورجل متفنن، أي ذو فنون»⁽⁴⁾، كما نجد أن كلمة Arts الإنجليزية أو الفرنسية لها معنى عام هو الصنعة، حيث أن كلمة فن: Art في المعاجم الإنجليزية والفرنسية تعني الصنعة، ومنها اشتق اسم Artisan أي حِرَفِي أو صانع أي فنان وصانع كذلك.

وأما الفن اصطلاحاً فهو: «تعبير عن الجمال، يمتاز بالتنظيم والتوازن المحكمين،

(1) سورة فاطر، الآية: 10

(2) ابن منظور، لسان العرب، ج 13، ص: 326

(3) المرجع نفسه، ص: 326

(4) أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، ج 1، ص: 215

وهذا التعبير يمثل استجابة وتجسيدا من الفنان، لما ينفع به انفعالا وجدانياً عميقاً⁽¹⁾، والفن أيضاً: «هو التعبير الجميل عن الكون والحياة»⁽²⁾، ومن مجموع هذه التعريفات اللغوية والاصطلاحية، يتضح لنا أن الفن هو الاتقان والإبداع والحسن والجمالية والتزين، فكل شيء يتميز بهذه العناصر يسمى فناً، ويسمى من يقوم به فناً أي متقناً ومجيداً ومبدعاً، وهذا يشمل الأعمال والأقوال والأفعال.

ب - تجليات الفن:

إن الفن يتجلى في الجودة والاتقان والإبداع والجمالية والتحسين والتزين والنظام والانضباط، والفن بهذه المعاني يشمل الحياة كلها بما فيها حركات الإنسان وسكناته، لأن النفس البشرية تتذوقه وتقبله وهي مفطورة على التفنن في كل الأشياء لأنها تتذوق الجمال والإبداع والحسن والاتقان وتقبله في كل شيء، وتمج القبح والفوضى والرداءة والتخليط وترفضه في كل شيء، لأن الكون كله بما فيه الإنسان وكل العوالم قائم على الإبداع والاتقان والحسن والتزين والجمالية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁽⁴⁾، وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾⁽⁵⁾، وقال عز شأنه: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾⁽⁶⁾، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾⁽⁷⁾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾⁽⁸⁾، فالتحسين والتزين والجمالية والإبداع والاتقان من خصائص هذا الدين ومميزاته. والفن في الإسلام يجمع كل هذه المعاني ويقوم على العبودية الخالصة لله عز وجل واستحضار نية التقرب إليه على أساس من عقيدة التوحيد والتصور الشامل للكون والحياة والإنسان. فالفن من هذا المنطلق ضرورة حياتية للإنسان كالماء والطعام والهواء، لأنه يهيئ في الإنسان ذلك اللقاء الكامل بين الجمال والحق، فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق هو ذروة هذا الجمال.

(1) محمد المهدي ولد محمد البشير، ما حقيقة الفن؟ الأنترنت، موقع: www.google.com

(2) محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، ص: 6

(3) سورة الملك، الآية: 5 (4) سورة الأنعام، الآية: 101

(5) سورة التين، الآية: 4 (6) سورة غافر، الآية: 64

(7) سورة الحجر، الآية: 16 (8) سورة النحل، الآية: 6

إن الفن منهج رباني تقوم عليه السماوات والأرض وكل العوالم، قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾⁽¹⁾، وقال عز وجل: ﴿يَدْبِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾⁽²⁾، ومن هنا فكل العوالم تدعو المسلم إلى التأمل في حسن نظامها ودقة انضباطها وفي عظيم إتقانها وجمال تفننها. ومن ثم إلى الاقتداء بها حتى تنتظم عبادته وتنضبط حياته وتقوم على الاتقان في كل ناحية من مناحيها فتكون حياة مستقيمة لا اعوجاج فيها، بل تتميز بالانضباط والاتقان والتنظيم والحسن والجمالية.

إن كل العبادات في الإسلام لها علاقة وثيقة بالثقافة بمعنى: الدراية والمعرفة والمهارة والذكاء، وبالفن والتفنن وحسن الصنعة بمعنى: الاتقان والأداء الجيد والتنظيم، وبالأخلاق بمعنى: الانضباط في السلوك والقول الحسن والكلم الطيب والعمل الصالح، لأن هذه العبادات ترفض الجهل والفوضى والتخليط والخطب قولاً وعملاً، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»⁽³⁾، وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله جميل يحب الجمال»⁽⁴⁾، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً»⁽⁵⁾، وقال صلى الله عليه وسلم: «الكلمة الطيبة صدقة»⁽⁶⁾، وقال صلى الله عليه وسلم: «وتبسمك في وجه أخيك صدقة»⁽⁷⁾، فجمع صلى الله عليه وسلم بين العبادة والاتقان والجمال والحسن والأخلاق، وهذا منهج نبوي شريف اتصف به عليه الصلاة والسلام وتمثلت فيه هذه الأخلاق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁽⁸⁾، وأمر المسلمين بالإقتداء به والتخلق بأخلاقه والتأسي بسنته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾⁽⁹⁾، وحتى تتحقق شعيرة الحج على الوجه المطلوب شرعاً فهي تتطلب هذه الثقافة القائمة على العبودية الخالصة لله الواحد الأحد وعلى الأخلاق الحسنة والانضباط والفنية في الأداء مع التحلي بشعار النبي صلى الله عليه وسلم في الحج: «افعل ولا حرج»⁽¹⁰⁾، إنه شعار التيسير الذي تمتاز به هذه الأمة الإسلامية.

(2) سورة البقرة، الآية: 117

(4) رواه مسلم

(6) رواه البخاري ومسلم

(8) سورة القلم، الآية: 4

(10) رواه البخاري ومسلم

(1) سورة النمل، الآية: 88

(3) رواه البيهقي والطبراني

(5) رواه البخاري

(7) رواه البزار

(9) سورة الأحزاب، الآية: 21

الفصل الثاني

الطهارة، صلاة ركعتين، الإحرام، الميعات، التلبية

- المبحث الأول: الطهارة
- المبحث الثاني: صلاة ركعتين
- المبحث الثالث: الإحرام
- المبحث الرابع: الميعات
- المبحث الخامس: التلبية

المبحث الأول الطهارة

إن العبادة في الإسلام تقوم على الطهارة، وهي شرط أساسي في صحة هذه العبادة وقبولها، وقد أمر الإسلام المسلم بالطهارة لأنه يعتبره جسداً وروحاً وأن سعيه للعبادة هو سعيه للتطهر من الذنوب وتركية النفس وتطهيرها. وهذه الطهارة الروحية لن تتم إلا بتطهير الجانب المادي في الإنسان وهو جسمه والعكس صحيح، ولذلك جمع الإسلام للمسلم بين هذه وتلك، قال صلى الله عليه وسلم: «أرايتم لو أن بياض أحدكم نهراً يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟»، قالوا لا يبقى من درنه شيء، قال فذلك مثل الصلوات الخمس، يحسب الله بهن الخطايا»⁽¹⁾، وقال عليه الصلاة والسلام: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»⁽²⁾، وبهذا التصوير الرائع والأسلوب الفني الجميل والتشبيه النبوي الشريف، يرسم لنا النبي صلى الله عليه وسلم ارتباط الجانب الروحي والجانب المادي عند المسلم، وقد كان من دعائه عليه الصلاة والسلام بعد الوضوء قوله: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»⁽³⁾، فالتوبة طهارة من الذنوب كما أن الوضوء طهارة للجسم من الأدران والأوساخ.

ولكي تكتمل طهارة المسلم لا بد أن يجمع بين طهارة الجسم وطهارة الروح، قال صلى الله عليه وسلم: «من حج هذا البيت فلم يفسق ولم يرفث رجع كيوم ولدته أمه»⁽⁴⁾، أي رجع طاهراً من ذنوبه وهذه طهارة روحية ترافقها طهارة جسمية تتمثل في الاغتسال وتطهير الجسد وتنظيفه قبل الإحرام، كتقليم الأظافر والاستحداد وتفقد منابت الشعر وتنظيفها حلقاً أو نتفاً، وتطهير هذه الأماكن التي تجتمع فيها الأوساخ، وتفقد كل أجزاء الجسم وتنظيفها.

إن هذه النظافة تعتبر من سنن الفطرة وهي الكلمات التي أمر الله عز وجل بها

(2) رواه مسلم
(4) رواه البخاري

(1) رواه مسلم
(3) رواه الترمذي

إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾⁽¹⁾، أي أن الله عز وجل: «ابتلاه بالطهارة، خمس في الرأس وخمس في الجسد، في الرأس: قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظافر وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء»⁽²⁾، لأن طهارة الجسم تدل على طهارة الروح، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾⁽³⁾، فقد بدأت هذه الآية بالتحذير من الشرك وهو عين النجاسة ثم الصدع بأذان التوحيد وهو عين الطهارة زيادة في التطهير، وقد شرعت الطهارة في الإسلام عموماً وقبل الإحرام للحج خصوصاً لتجعل من المسلم إنساناً نظيفاً جسداً وروحاً، فالحاج يغتسل وينظف بدنه ويتطهر لأن الطهارة الروحية التي ينشدها تتطلب منه طهارة جسمية لكي يحققها على الوجه المطلوب والأكمل الذي تهدف إليه شعيرة الحج.

(1) سورة البقرة، الآية: 124

(2) اسماعيل بن كثير، تفسير بن كثير، ج 1، تدار الفكر، بيروت، 1401هـ، ص: 166

(3) سورة الحج، الآية 26-27

المبحث الثاني صلاة ركعتين

لقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم للحاج صلاة ركعتين قبل الإحرام ليتصل الحاج بربه ويمد حبل الصلة بينه وبين فاطره، فلا يغفل عنه لحظة وهو يؤدي مناسك الحج، وهاتان الركعتان هما بمثابة ركعتي شكر الله على توفيقه للحاج وقبوله كضيف من ضيوفه، فقد استضافه ربه لبيته لكي يكرمه بالمغفرة والرحمة والعق من النار وإدخاله الجنة، وهذا أقصى ما يتمناه كل حاج يفد إلى بيت الله.

كما أن هذه الصلاة تعتبر بمثابة مفتاح للدخول على الله واستئذانه في القيام بالمناسك وأن ركوع الحاج وسجوده فيها بمثابة خضوع واستسلام له واستجابة لندائه بأذان الحج الخالد.

إن الحاج وهو يصلي هاتين الركعتين ويستحضر هذه المعاني الجليلة وهذه المقاصد النبيلة تعينه على تحقيق روح الحج وتجعل منه مسلماً على علم بمعاني الحج ومقاصده وأهدافه التي من بينها الاتصال المباشر بربه بدون واسطة ولا وسيط.

المبحث الثالث

الإحرام

الإحرام لغة: مصدر من أحرم، ونقول: «أحرم الرجل يحرم إحراماً، إذا أهل بالحج أو بالعمرة، وبأشْر أسبابها وشروطها، من خلع المخيط، واجتناب الأشياء التي منعه الشرع منها، كالطيب والنكاح، والصيد، وغير ذلك. والأصل فيه المنع، فكأن المحرم ممتنع من هذه الأشياء، ونقصد هنا بالإحرام الدخول في النسك، ويجمع بين نية الحج ولبس ثوب الإحرام. وأحرم الرجل إذا دخل الحرم»⁽¹⁾.

والإحرام في الشرع هو نية الدخول في الحج أو العمرة، إنه الخطوة الأولى ونقطة الانطلاق في أعمال الحج واستعداد لمباشرة مناسكه.

ومن دلالات الإحرام أنه يعلن في صمت عن مبدأ المساواة بين الحاج من خلال لبس ثوب الإحرام الذي يدل على المساواة بين الفقير والغني، والأبيض والأسود، والعربي والعجمي، وباختصار بين العباد كلهم وإن تميزوا بجودة الثوب وجماليته يبقى الأصل هو ثوبين أبيضين: إزارا ورداء، وهكذا نجد عظمة هذه الفريضة التي تقصد مُثُلًا وقيَمًا خالدة من خلال شعائرها الغنية بالدلالات والمعاني، كوحدة الثوب كمَّا «العدد» وكَيْفًا «اللون الأبيض» التي تدل على المساواة والوحدة والإخاء، فكل حاج بمثابة مرآة تعكس حاجاً آخر مثله ويرى صورته فيها، وهذا يدخل في عموم قول النبي عليه الصلاة والسلام: «المؤمن مرآة أخيه المؤمن»⁽²⁾، كما يدل الإحرام على وحدة مصيرهم وهو الموت ورجوعهم إلى الله بدون استثناء يستوي في ذلك الغني والفقير، والعظيم والحقير، والأبيض والأسود، والصغير والكبير، والرجل والمرأة.

فالحاج وهو يتجرد من ثيابه ويلبس ثوب الإحرام وقت إحرامه: «يتذكر لبس كفته وأنه سيلقى ربه على زي مخالف لزي الدنيا»⁽³⁾، فهذا الثوب بلونه الأبيض الذي

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج 1، ص: 373.

(2) رواه البخاري

(3) أحمد بن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، تحقيق محمد وهي سليمان، المكتبة العصرية،

2001، ص: 51

لا زخرف فيه ولا تزويق يذكر المسلم عموماً والحاج خصوصاً بحقيقة الموت التي لا مفر منها، فثوب الإحرام يشبه إلى حد كبير ثوب الكفن الذي يكفن به الموتى ويوارون به في الثرى، إنه يذكر الحاج بأنه يسير إلى الطريق نفسه: يقول أحد الشعراء:

لَا يُعْجِبُنْ مُضِيماً⁽¹⁾ حُسْنُ بَرِّهِ⁽²⁾ وَهَلْ يَرُوقُ دَفِينًا جَوْدَةَ الْكَفَنِ

فالإحرام يربط الحاج بآخرته ويذكره بالموت وبالإقبال على الدار الآخرة فيلاقي ربه بهذا الثوب الأبيض، وقد ترك خلفه كل زينة الحياة الدنيا ومتعها من أموال وأولاد ونساء تماماً كما هو الحال بالنسبة للميت الذي لا يأخذ معه شيئاً من حياته الدنيا إلا هذه القطعة من القماش.

كما يدل ثوب الإحرام كذلك على العودة إلى الفطرة في نقائها وبياضها وطهارتها التي فطر الله الناس عليها، ويدل على الرغبة في تطهير هذه الفطرة من الذنوب والبدء من جديد والحفاظ عليها نقية طاهرة كما أودعها الله في عباده.

وبقدر ما يدل الإحرام على الرجوع إلى الفطرة، يدل على رفض كل المقاييس والموازن الإنسانية الوهمية التي تفصل بين أبناء الإنسانية، حيث يذوب المجال المادي ويبدأ المجال المعنوي، وهذا يتجلى لنا جيداً عندما يشترط في إحرام الرجل أن لا يلبس محيطاً ولا مخيطاً، وفي إحرام المرأة أن لا تلبس زينة وأن تبتعد عنها مطلقاً. فتجرد الحاج من لباسه إلا من ثوب الإحرام يدل على تجرده من شهوات النفس ونزواتها، كما يدل على تجرد النفس من اللباس الفاخر والإقبال على من أنزل هذا اللباس، إنه تجرد من اللباس العادي إلى لباس التقوى، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾⁽³⁾، وقال عز وجل: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾⁽⁴⁾، فلباس التقوى هو خير لباس وهو زاد للمسلم عموماً وللحاج بصفة خاصة يعينهما في الرحلة إلى الله عز وجل وإلى الدار الآخرة.

إن اللباس العادي قد تختلف فيه طبقات الناس بين غني وفقير، وقد يكون محل تفاخر ومباهاة وزهو واختيال، أما هذا الثوب الأبيض الموحد بين جميع الحجاج فهو

(2) البرّة هي الهيئة واللبسة

(4) سورة الأعراف، الآية: 26

(1) المُضِيْم هو الظالم والمُضِيْم هو المظلوم

(3) سورة البقرة، الآية: 197

يدل على التواضع والوحدة والمساواة، قال صلى الله عليه وسلم: « لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأسود على أبيض، إلا بالتقوى »⁽¹⁾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾⁽²⁾، وقال عليه الصلاة والسلام: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »⁽³⁾، وقال صلى الله عليه وسلم: « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً »⁽⁴⁾، وقال عليه الصلاة والسلام: « الناس سواسية كأسنان المشط »⁽⁵⁾، فلباس الإحرام يدل على التلاحم والتعاطف والمساندة والشعور المشترك بين المسلمين.

إن من مقاصد الإحرام والتجرد من الثياب إلا من ثوب الإحرام تذكير الحاج بقول الله عز وجل: « يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم »⁽⁶⁾، فالإحرام بقدر ما يُعلم الحاج وبنه نفسه بحالة الموتى يشعرها كذلك بالضعف والافتقار والاحتياج إلى الله عز وجل عندما يجد الحاج نفسه واقفاً بين يديه لا حول له ولا قوة.

إن الحاج وهو يلبس لباس الإحرام ويستحضر كل هذه المعاني يحقق روح الإحرام وهو تذكّر الموت والآخرة ولقاء الله عز وجل، وهذا يدفع المحرم أن يجتهد في التقرب إلى الله وطاعته وهو يؤدي مناسك الحج، متحلياً بالأخلاق الحسنة منضبطاً ومتقناً لأعمال الحج ومتفناً في أدائها ابتغاء مرضاة الله.

فمن مقاصد الإحرام تذكير الحاج بأن له إخوة في العقيدة من مختلف جهات هذا الكون، يحرمون مثله ويقومون بمثل بما يقوم به، فيشعر أنه جزء منهم، يشاركونهم في أحاسيسهم ووجدانهم، وهذا تحقيق لمقصد مفهوم الأمة المسلمة التي تعتبر كالجسد الواحد وكأسنان المشط والبنيان يشد بعضه بعضاً، حيث تلغى كل الفوارق الدنيوية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتذوب الفوارق المذهبية والقومية والجنسية.

ومن مقاصد الإحرام كذلك المراقبة الدائمة لله عز وجل واستحضار معيته، فالحاج حينما يحرم يشعر أنه صار تحت حماية الله وتحت مراقبته الأشد، فهو يحرص

(2) سورة الحجرات، الآية: 13

(4) رواه البخاري ومسلم

(6) رواه مسلم

(1) رواه أحمد والبيهقي

(3) رواه البخاري

(5) رواه ابن حبان

كل الحرص على عدم ارتكاب ما حرمه الله عليه، لأن الإحرام يشبه إلى حد ما شعيرة الصيام، ففي الصيام يحرم على المسلم أشياء يراها ويلمسها وهو قادر على تناولها، كالحاج تماما الذي يحرم من أمور في متناوله من محظورات الإحرام، وذلك حتى تمتحن مراقبته لله عز وجل وتختبر إرادته في مدى استجابتها السريعة ودون تردد أو حرج لأوامره، ثم مدى سيطرتها على النوازع والغرائز المتنوعة والمختلفة، وليشعر الحاج بعد ذلك بعظمة نعم الله عليه، فيشكره شكرا يليق بجلاله ويتناسب مع ما رسمه إليه.

والإحرام يشعر المسلم كذلك بالزهد في المتع الدنيوية والتحرر من ربقتها ويدربه تدريجيا عمليا على حسن الكلام وأطيبه ويبعده عن الرفث والفسوق والجدال والكذب، استعدادا لنفي هذه الرذائل والخصال الذميمة واستئصالها من حياته بعد الحج بصفة نهائية. وهكذا تصبح مراقبة الحاج لله سبحانه وتعالى ديدنه في حياته العادية وفي كل سلوكه بعد الحج كما علمته هذه الشعيرة العظيمة.

المبحث الرابع الميقات

إن الميقات هو المكان الذي يحرم منه الحاج أو المعتمر، وله مقاصد ولا يقل معنى ودلالة عن الإحرام، وينقسم الميقات إلى زماني ومكاني، فأما الميقات الزماني للحج فهو في ثلاثة أشهر وهي: شوال وذو القعدة والعشر الأول من ذي الحجة، وأما الميقات الزماني للعمرة فهو طوال العام، أي في أي وقت شاء المسلم أن يعتمر اعتمر.

أما المواقيت المكانية فهي الأماكن التي حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمن أراد الحج أو العمرة بأن يحرم منها، ولا يجوز له أن يتجاوزها بغير إحرام إذا نوى الحج أو العمرة، ومن يتجاوزها فإنه يجب عليه أن يعود إليها ويحرم منها، وإلا فعليه هدي يذبحه ويوزعه على فقراء الحرم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وقت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يَلَمْلَمُ، قال فهن هن ولمن أتى عليهن أهلن، ممن أراد الحج والعمرة، فمن كان دونهن فَمَهْلُهُ من أهله، وكذلك حتى أهل مكة يَهْلُونَ منها»⁽¹⁾، وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم: «وقت لأهل العراق ذات عِرْق»⁽²⁾.

إن هذه الأحاديث غنية بالدلالات والمعاني والمقاصد، فالمواقيت بهذا الشكل وبهذا التوزيع تبرز لنا عظمة الإسلام وشموليته، فهو يعم جميع جهات الكون: شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بالنسبة لبيت الله الحرام وبيته العتيق، فالإسلام لم يترك أي جهة من العالم دون أن يوقت لها مكاناً لإحرامها، وهذا يدل على عالمية الإسلام وصلاحيته لكل زمان وكل مكان وللكون كله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما أن هذا التوقيت وهذه الجهات من العالم هي تصديق لقول الله تعالى حينما أمر خليله إبراهيم عليه السلام بأن يؤذن في الناس بالحج، قال عز وجل: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾⁽³⁾،

(2) رواه أبو داود والنسائي

(1) رواه البخاري ومسلم

(3) سورة الحج، الآية: 27

حيث أن مكة تتوسط هذه الجهات من العالم، وهذه دلالة على ما يتميز به دين الإسلام من وسطية وتوازن واعتدال، وما يمتاز به هذا المكان المبارك من جاذبية وتشويق، فهو مهوى الأفئدة من كل جهات العالم استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾⁽¹⁾، إن هذه المواقيت تبرز لنا كذلك ميزتي النظام والانضباط في الزمان والمكان اللتان يتميز بهما هذا الدين الذي ينبذ الفوضى ويرفض العصيان والعشوائية والتخليط.

فمن الدلالات التي يوحى بها الميقات أن المسلم وهو يحرم في زمان ومكان الإحرام يعتبر بمثابة جندي من جنود الله تلزمه طاعته وتنفيذ أوامره كما هي، كما أن في عدم تجاوزه لميقاته زمانا ومكانا دلالة على انضباطه وحسن نظامه وعدم تعديه للحدود التي رسمها الله عز وجل له. فالانضباط والنظام والطاعة عبادة لله عز وجل تقوم على الأخلاق الحسنة والفنية في الأداء والجمالية في التنفيذ، وهذه هي الثقافة المطلوبة من المسلم عموما ومن الحاج على الخصوص.

(1) سورة إبراهيم، الآية: 37

المبحث الخامس

التلبية

إن التلبية في الحج هي أن يقول الحاج عندما يحرم: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك» ويستمر فيها طيلة أيام الحج إلى يوم النحر بعد أن يرمي جمرة العقبة، وقد تضمنت هذه الكلمات من المقاصد والمعاني والدلالات الشيء الكثير. فقد جمعت كل معاني التوحيد والعبادة والطاعة والامتثال والشكر لله الواحد الأحد.

إن التلبية استجابة بشرية كبرى لنداء رباني عظيم طُلب من أبينا إبراهيم عليه السلام إمام الموحدين أن يعلنه في الأرض، قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾⁽¹⁾، وأُعْطِيَ وعداً بأن يستجيب له المؤمنون، قال عز وجل: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾⁽²⁾، وبقدر ما تدل التلبية على استجابة العبد لمولاه والمثل بين يديه، تدل على ضعف العبد وافتقاره وحاجته إلى سيده ومولاه، فهو يستجير ويلوذ به كي يحفظه ويرضى عنه.

فمن مقاصد التلبية تربية المسلم عليها حتى تصبح ديدنه فيتربى على الاستجابة لله في كل أمر أو نهى، لسان حاله مع الأمر والنهي في حياته دائماً: «لبيك اللهم لبيك» فلا يتأخر عن الاستجابة، فالحج يجعل من التلبية فرصة عظيمة للتربية على دوام استجابة العبد لمولاه في كل أمر أو نهى، كما يجعل منها فرصة للتربية على الانضباط والجدية.

ومن مقاصد التلبية أيضاً تربية المسلم على الشعور بارتباطه بحركة التوحيد الخالص الذي ينزه الله عن الشريك والولد بكل ما يعنيه هذا الارتباط من تحكيم هذا التوحيد في كل شؤون الحياة، وتربيته كذلك على الشعور باتمائه إلى دين الإسلام باعتباره أمانة عظيمة ومهمة كبرى ألقيت على عاتق هذه الأمة وعليها أن تتحملها

(1) سورة الحج، الآية: 25

(2) سورة الحج، الآية: 25

بجدارة، وعلى الإحساس بانسجامه مع حركة الكون الذي يليه هو الآخر ولا يتوقف عن التلبية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾⁽¹⁾، ولذلك أمر الإسلام الحاج بالتلبية تحقيقاً لهذا الانسجام مع حركة الكون الملي لأوامر فطره باستمرار وعلى الدوام، قال صلى الله عليه وسلم: «أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي ومن معي أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية»⁽²⁾، وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل الحج، العَجُّ والعَجُّ»⁽³⁾، والعَجُّ هو: رفع الصوت بالتلبية، والعَجُّ هو: سيلان دم الهدي والأضاحي، وقال صلى الله عليه وسلم: «ما من ملب يلي، إلا لبي عن يمينه وعن شماله من حجر وشجر ومدر، حتى تنقطع الأرض من هنا وهنا - يعني - عن يمينه وشماله»⁽⁴⁾.

وهكذا تصبح التلبية نشيد المسلمين القادمين من مشارق الأرض ومغاربها، وتصير ديدنهم يترنمون بها طيلة أيام الحج ويطربون لكلماتها ويتغنون بها ويستشعرون معانيها الجليلة ومقاصدها العظيمة، ويعيشون لها ومعها دون انقطاع أينما حلوا وارتحلوا، حتى إذا نسيها أو غفل عنها أحدهم، ذكره آخر بمجرد أن يراه ينطق بها، حتى تصبح التلبية دلالة على التأزر والتعاون على البر والتقوى والاجتماع على كلمة سواء هي كلمة التوحيد الخالص والعبودية الخالصة لله رب العالمين. ويكفي الحاج الملي الذي لا يفتر لسانه عن النطق بها ولا يغفل قلبه عنها أنه إذا توفاه الله وهو على هذه الحالة، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً، يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل الذي سقط عن راحلته يوم عرفات ومات: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تحمروا رأسه ووجهه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً»⁽⁵⁾، فالتلبية بقدر ما تتضمن معاني التوحيد وشكر النعم والاستجابة للنداء الرباني الخالد، تزيد المسلم قوة وحماساً في أداء مناسك الحج وأعماله على الوجه المطلوب.

(1) سورة فصلت، الآية: 11

(2) رواه ابن ماجه

(3) رواه الترمذي

(4) رواه الترمذي وابن ماجه وابن خزيمة

(5) رواه مسلم

الفصل الثالث

الطواف، الصلاة خلف مقام إبراهيم، شرب ماء زمزم، السعي، الحلق، أو التقصير

- المبحث الأول: الطواف حول الكعبة
- المبحث الثاني: الصلاة خلف مقام إبراهيم
- المبحث الثالث: شرب ماء زمزم
- المبحث الرابع: السعي بين الصفا والمروة
- المبحث الخامس: حلق شعر الرأس أو تقصيره

المبحث الأول الطواف حول الكعبة

الكعبة المشرفة هي القبلة وهي بيت الله العتيق ومهوى أفئدة المسلمين أينما كانوا في أنحاء المعمورة، ينفذ إليه الحجاج من كل فج عميق ليقوموا بمناسكهم وليطوفوا حول الكعبة المشرفة تلبية لأمر الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ حَيْثُ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾⁽¹⁾، فالكعبة المشرفة هي أول بيت وضعه الله عز وجل للناس، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾، وجعله قبلة لأهل الأرض جميعاً، إليه تتجه جباه ونفوس وقلوب المؤمنين خاشعة ومتذلة للواحد الأحد في صلواتها، ومتضرعة إليه آناء الليل وأطراف النهار في دعائها، فعظمة هذا البيت تكمن في توحيد القلوب والنفوس والمشاعر، لأن وحدة القبلة عند المسلمين دلالة على وحدة قلوبهم ومشاعرهم ونفوسهم.

فالحاج وهو يرى الكعبة يتذكر أن هذا البيت هو أول بيت أقيم في الأرض لعبادة الله سبحانه وتعالى، ويتذكر أن بانيه هو نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، وهما الرسولان الكريمان اللذان جعل الله من ذريتهما هذه الأمة المسلمة، وقد استجاب الله دعوتهما الخالصة وهما يشيدان هذا البناء العتيق، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁽³⁾، ويتوجه إبراهيم عليه السلام إلى ربه بالدعاء متضرعاً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ يَهْوَى إِلَهُهُمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾⁽⁴⁾، فالمسلم وهو يطوف حول الكعبة يشعر بارتباطه بتلك الأسرة المسلمة المباركة وانتمائه لها، وأن المسلمين عبر تاريخ البشرية عائلة واحدة، وما هذه الأمة إلا امتدادا لها، فيفتخر بهذا الانتماء ويعيش في ظلله حياة السلم والإسلام.

(2) سورة آل عمران، الآية: 96

(4) سورة إبراهيم، الآية: 37

(1) سورة آل عمران، الآية: 97

(3) سورة البقرة، الآية: 127

إن المسلم وهو يُقْبِلُ بنظره على الكعبة المشرفة يتذكر أنه جاء إلى بيت أبويه إبراهيم وإسماعيل اللذين يجبهما، جاء ليصل رحمه بهما، فبين المسلم وبينهما توجد روابط صلة رحم، إنها روابط قلبية وروحية لا تضعف منها مسافة الزمان أو المكان مهما بعدت أو طالت، وهذا مقصد من المقاصد التي يستفيد بها المسلم من فريضة الحج ولو مرة في العمر، فالحج بقدر ما جعل لعبادة الله وتوحيده وتعظيمه جعل ليصل الحاج رحمه مع آبائه وأجداده، وهذا يدخل في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «النظر إلى الكعبة عبادة»⁽¹⁾، فقد استعمل عليه الصلاة والسلام لفظة «نظر»، ولم يستعمل لفظة «رؤية» أو لفظة «مشاهدة»، لأن النظر يتجاوز الرؤية والمشاهدة بالعين المجردة إلى استعمال العقل والفكر والتدبر واستحضار المعاني والدلالات التاريخية العظيمة التي يوحى بها النظر إلى بيت الله العتيق.

أما الطواف حول الكعبة في بيت الله الحرام فله مقاصد ومعان ودلالات كثيرة، والمسلم وهو يطوف حول البيت ويستحضرها تعينه على تحقيق روح الطواف، فلا يطوف بجسده فحسب، ولكنه يطوف بروحه ووجدانه وكيانه أيضاً، فيحس أن طوافه حول البيت مبايعة لله على طاعته وتجديد للعهد معه على السير وفق صراطه المستقيم. فالمسلم وهو يطوف حول البيت يشعر أن طوافه صلاة، قال صلى الله عليه وسلم: «الطواف بالبيت صلاة»⁽²⁾، فهو عبادة لله وطاعة له، ولكنها طاعة المحبوب المشتاق لحبيبه يطوف حوله ويرجو رحمته ومغفرته ورضوانه. فأناء طوافه بالبيت يشعر الحاج أنه يقلد الملائكة الذين يطوفون حول العرش وحول البيت المعمور مطاف الكون كله، وطواف الملائكة حول العرش إنما هو تسبيح واستغفار للمؤمنين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾⁽³⁾، إن هذا التكريم الإلهي العظيم وهذا التفضيل الرباني الرفيع بتسخير الملائكة وهم حول عرش الرحمن للاستغفار للمؤمنين، يزيد الحاج إيماناً بالله ومحبة له وشوقاً إليه.

(1) أبو شجاع الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، تحقيق، ابن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ص: 293.

(2) رواه ابن حبان

(3) سورة غافر، الآية: 7

فما أروع من تكريم وما أروع من تفضيل وما أروع شعور المسلم بهذا الإكرام الإلهي، فهو يطوف كما يطوف الكون كله في اتجاه واحد، هو اتجاه التوحيد والعبودية لله رب العالمين، من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة في الوجود، فقد أعلن في بعض المؤتمرات الطبية أن الحيوان المنوي يطوف حول البويضة سبعة أشواط قبل أن تتم عملية التلقيح، وكأن هذا الكائن المنوي يعلن التوحيد قبل خلقه جنيئاً لكي يخرج إلى الدنيا بهذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وهكذا يشعر المسلم أن كل خلاياه تشاركه عبادة الطواف حول الكعبة تماماً على صورة الكون كله بكافة مخلوقاته التي تسبح خالقها، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾⁽¹⁾، فيدرك أنه لا ينبغي أن يعاكس هذا الاتجاه أو أن يختار اتجاهاً آخر غير هذا الاتجاه الكوني نحو الخالق، إنه اتجاه التوحيد والطاعة والامتثال والعبادة الخالصة لله عز وجل. فالحاج وهو يطوف حول البيت يستشعر بأنه يطأ موطن الأنبياء والرسل والصالحين من عباد الله، فهو يضع قدمه حيث وضعوا أقدامهم ويتجه حيث اتجهوا، حول التوحيد والعبودية الخالصة لله الواحد الأحد، فهذا البيت الواحد هو دليل على الإله الواحد الأحد، والكون كله مكلف بالطواف حول هذا المركز الواحد الذي خصه الله بذلك قصد تعميق الإيمان الخالص به عز وجل في الإنسان والكون.

إن الكعبة منار الإسلام وعلمه والحاج في طوافه يعتبر جندياً من جنود الله، يطوف حول هذا العَلَمِ ويتمسك به، ويعمل على رفعته ونصرته وتعظيمه، فإذا كان الملائكة يطوفون حول العرش محور حركة الكون، فإن المسلم يطوف حول الكعبة محور حركة الأرض، وعليه أن يعمل على تحقيق هذا المعنى في الأرض وفي واقعه الحياتي.

وهنا لا بد أن نشير إلى تلك المخالفات التي يقع فيها بعض الحجاج الذين ينسون هذه المعاني العظيمة، فتجدهم يتمسحون بالكعبة وبالحجر الأسود، وكل هذا مخالف لشرع الله الذي يقوم على العبودية الخالصة لله الواحد الأحد، وما ذلك الزحام والاختناق الذي يقع للناس إلا نتيجة الجهل بمبادئ ديننا العظيم، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينظر إلى الحجر الأسود ويقول: «والله إنني لأعلم أنك حجر،

لا تنفع ولا تضر، ولولا أنني رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقبلك ما قبلتك»⁽¹⁾، هكذا يعلمنا هذا الرجل العظيم والصحابي الجليل والخليفة الراشد كيف نحافظ على عقيدتنا من الشرك والعبودية لغير الله، فالذي ينفع ويضر ويعطي ويمنع هو الله، وهو خالق البشر والشجر والحجر وكل هذه العوالم، يقول أحد الشعراء:

الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ قَبْلَتُهُ بِشَفَّتِي قَلْبِي وَكُلِّي وَلَهُ
لَا لِاعْتِقَادِي أَنَّهُ نَافِعٌ بَلْ لِهَيَّامِي بِالَّذِي قَبْلَهُ

فعبّر عن تقبيله للحجر بقلبه قبل شفّيته ولها بمن قبله، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا دليل على صدق المحبة والإتباع للنبي صلى الله عليه وسلم وصدق الاستمساك بستته، لا كما قال شاعر آخر:

أُمِرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارَ لَيْلَى أَقْبَلُ ذَا الْجِدَارِ وَذَا الْجِدَارَا
وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَعْلَنَ قَلْبِي وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَا

فلا يطوف الحاج بالبيت سبعة أشواط ولا يُقبل الحجر الأسود إن تيسر له ذلك إلا تعبداً لله ومحبة له، فتوجه المسلم إلى البيت هو توجه إلى ما يتميز به هذا البيت من بركة وقداسة وليس توجهها لحجر أو جدران، فلا ينبغي للمسلم أن يزاحم الناس ويؤذيهم بالشكل الذي نراه اليوم بهدف الوصول إلى الحجر الأسود وتقبيله، فهذا مخالف لأخلاق الإسلام والمسلمين، وإن زعم من يفعل ذلك أنه يحب الله ورسوله، فالنبي صلى الله عليه وسلم سن للحاج تقبيل الحجر الأسود إن تيسر له ذلك ولكنه في نفس الوقت نهى عن أذية المسلمين، وأمره في حالة الزحام أن يستلمه فقط إن أمكنه ذلك وإلا فيكتفي بالإشارة إليه باليد ولو من بعيد، حتى لا يؤذي القوي الضعيف، بل إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قريباً من الحجر الأسود قال له: «يا عمر إنك رجل قوي، تردّي الضعيف، فإن خلا لك الحجر فاستلمه، وإلا فاستقبله، وهلل وكبر»⁽²⁾، لأن الحج مدرسة ربانية من مقاصدها ترويض النفس على حب الآخرين ومساعدتهم، خصوصاً وأن في الحج نساء وشيوخاً وأطفالاً وأصحاب إعاقات مختلفة،

(1) رواه البخاري ومسلم

(2) أبو شعاع الهمداني، الفردوس بمأثور الحديث، تحقيق بن بسيوني زغلول، ج 5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ص: 309.

وهؤلاء في أمس الحاجة لمساعدة الأصحاء لهم في شؤونهم، قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى عبداً خلقهم لحوائج الناس، يفرع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون يوم القيامة»⁽¹⁾، فإذا كان تقبيل الحجر الأسود سنة، فإن عدم أذية المسلمين فرض، ولا يجوز تقديم السنة على الفرض، لأن السنة لن تُقبل إلا إذا قبل الفرض، وإذا كانت أذية المسلمين حرام، فهل يليق بالمسلم أن يجعل من الفعل المحرم وسيلة لتحقيق سنة من السنن؟.

بل إن العجب العجيب أن ترى بعض النساء لا يتورعن في الزحام مع الرجال والحرص على تقبيل الحجر الأسود، وقد تتكشف المرأة وسط الرجال أو يظهر شعرها كله أو بعضه، وكل هذا مخالف لشرع الله وأوامره ولسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن الغريب الحاصل أن نرى ما يفعل بعض الحجاج من تمسح بجدران الكعبة وأستارها، وكل هذا مخالف للتوحيد وللعقيدة الصحيحة التي من أجل تصحيحها وتقويتها شرع الحج، بل هي من مقاصده العظيمة وأهدافه الأولى، فمن الدروس الأولى التي يتعلمها الحاج وهو يطوف مع إخوانه من الحجاج حول البيت هو تحرير العقل من الشرك وأسبابه.

إن الطواف الخالي من هذه المخالفات يحس فيه كل مسلم أنه جزء من تلك الخلية من الحجاج الذين يطوفون حول البيت في اتجاه واحد، وخصوصاً وهم في حالة «الإضطباع»⁽²⁾ أو في حالة «الرمل»⁽³⁾، إن الطواف بالبيت في كلتا الحالتين يشكل لوحة فنية رائعة تظهر لكل ناظر من بعيد فيرى جموع الحجاج الطائفين في نظام وانضباط وقوة لما في الاضطباع من إظهار للقوة ومن وحدة في الأجسام، ولما في الرمل من فوائد صحية من خلال تنشيط الدورة الدموية التي تزيد الطائفة حيوية ونشاطاً وقوة فيزداد المسلم إيماناً بعظمة هذا الدين ونظامه وانضباطه.

(1) أبو عبد الله القاضي، مسند الشهاب، ج، 2، تحقيق حمدي بن عبد الحميد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986، ص: 117.

(2) الإضطباع: وهو حين يجعل الحاج وسط رداءه تحت إبطه الأيمن وطرفه على كتفه الأيسر، وذلك أثناء طواف القدوم أو طواف العمرة ويكون في الأشواط السبعة كلها.

(3) الرمل: وهو الإسراع في المشي مع تقارب الخطى في الأشواط الثلاثة الأولى من طواف القدوم فقط وهو سنة للرجال القادرين دون النساء.

وللطواف حول البيت دلالة عظيمة لا تتمثل في وحدة أجسام الحجاج وقلوبهم فحسب، وإنما تتمثل في كونه يبدأ من الحجر الأسود وينتهي عنده أيضاً، فهو بمثابة نقطة انطلاق ووصول مشتركة بينهم جميعاً وعلى كل طائف أن ينطلق منها وينتهي إليها، وهذا الأمر قمة في النظام والانضباط الذي يتعلمه الحاج من شعيرة الطواف.

ومن الدلالات التي يوحى بها الطواف حول البيت أنه يكون عكس دوران عقارب الساعة، بحيث يجعل الحاج الحجر الأسود عن يساره قريباً من قلبه، حتى تكون جهة القلب هي القريبة من الكعبة ومن أول بيت وضع للناس، وهذا دليل على تعلق القلب بها كمكان للعبادة وبواضعها، وهذا التعلق القلبي دليل على تحقيق دعاء نبي الله إبراهيم عليه السلام واستجابة الله له، فقد سأل الله قائلاً: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾⁽¹⁾، فكانت الكعبة مهوى لأفئدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ومكان شوقهم وحبهم لله عز وجل، ولذلك فالحج محبة وشوق وإجابة وتوحيد للأجسام على طاعة الله وللقلوب على محبة الواحد الأحد.

إن الطواف بالبيت ليس دوراناً ولا لفاً ولا تحويماً حول الكعبة كما يتوهمه البعض، ولا يمكن أن نسميه كذلك، لأن الطواف غير الدوران وغير اللف أو التحويم، إن الطواف يتم بالجسد وبالقلب معاً، فالجسد يطوف حول البيت والقلب يطوف حول واضع البيت، ولو أن الناس تمثلوا هذه المعاني والدلالات ما حصل زحام ولا حدث مضايقة أو أذية أثناء الطواف بالبيت، لأن ديننا يرفض الفوضى والعشوائية والتخليط، ولكن حينما تغيب هذه الثقافة وتنطمس هذه المعاني، يغيب النظام والانضباط وتغيب العبادة الصحيحة والأخلاق الحسنة والفنية في الأداء، ويحضر السلوك المشين وتخدش هذه العبادة وتفسد. فتجد بعض الناس حينما يدخل إلى بيت الله الحرام قصد الطواف بالبيت، فعوض أن يدخل مع الطائفين ويأخذ معهم نفس الاتجاه إلى أن يصل إلى الحجر الأسود ثم يبدأ في الطواف، تجده يعاكس اتجاه الطائفين بحثاً عن مكان الحجر الأسود، وبذلك تقع الفوضى ويكثر الزحام ويتدافع الناس في اتجاهين مختلفين ويتضرر كل الطائفين وخاصة الضعفاء منهم والعجزة، كل ذلك نتيجة هذا التصرف الخطأ الذي لا يقوم على ثقافة صحيحة لمقاصد الحج العظيمة في تأليف القلوب وتوحيدها على المحبة

(1) سورة إبراهيم، الآية: 37

وعلى التعاطف والتراحم بين الحجاج جميعاً، قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾⁽¹⁾، فللمسلم في خفض الجناح وحسن الخلق والإحسان إلى إخوانه من الحجاج وعدم مضايقتهم والتواضع لهم الأجر العظيم عند الله سبحانه وتعالى. فمن الأمور التي تحدث الزحام والاختلال في الطواف وجود بعض الحجاج ممن يعتقد بوجوب الوقوف على ذلك الخط البني الذي يوضح اتجاه الحجر الأسود، فتجده وهو يطوف ويقترب من الحجر الأسود يبدأ في النظر تحت أقدامه ويشغل بالبحث عن هذا الخط، حتى إذا ما وجده وقف وقفة طويلة يدعو ويقبل يديه بحركات مخالفة للسنة النبوية الشريفة، وقد يطيل الوقوف حتى يأتي آخرون يبحثون عن هذا الخط البني بنفس الاعتقاد وبنفس الطريقة فيقع الزحام أكثر فأكثر وتتوقف حركة الطواف ويختنق الضعفاء والعجزة من الناس رجالاً ونساء بسبب هذا السلوك القائم على الجهل بمناسك الحج وأهدافه الجليلة ومقاصده العظيمة.

لقد وُضعت للحجر الأسود علامة في الأرض على شكل خط بني، كما جُعِلت له أيضاً علامة مرتفعة عبارة عن ضوء أخضر لضبط اتجاهه فقط، ولا يُشترط على الطائف حول البيت الوقوف على هذا الخط البني أو تحت هذا الضوء الأخضر عند بداية الطواف أو كلها حاذاه، فهاتان علامتان يجوز للطائف أن يبدأ طوافه قبلهما بقليل أو بعدهما بقليل لأن المهم هو محاذاة الحاج للحجر الأسود بكل بدنه تفادياً للزحام وأذية الآخرين وعرقلة حركة الطواف والطائفين. فالحجر الأسود تلك القطعة التي نزلت من الجنة فتجسدت أمام الإنسان ما هي إلا رمز يذكر الحاج بفطرته الأولى ويشعره بحنينه إلى الرجوع إليها وإلى الجنة مرة أخرى، وما تقبيله أو استلامه أو الإشارة إليه من بعيد إلا دلالة على التوبة وتجديد العهد والاعتراف بالذنب وطلب المغفرة والرحمة من الله عز وجل لا من الحجر الأسود بالتمسح به والازدحام عليه.

فهناك بعض الحجاج ممن يعتقدون أنهم يحسنون صنعا همهم الوحيد والأساسي هو تقبيل الحجر الأسود، فتجدهم يدخلون مع الطائفين ويتوجهون مباشرة نحو الحجر الأسود، حتى إذا ارتووا من تقبيله والتمسح بجدران الكعبة، وبعد أذية الطائفين يخرجون لا يلوون على شيء، هدفهم هو التخلص من الزحام، فتجدهم يتوجهون في

كل الاتجاهات فيفسدون على الطائفين طوافهم، وعوض أن ينالوا ثواباً ومغفرة فقد ينالون إثماً وذنباً، ومن هؤلاء من يكون قد أدى ما عليه من طواف حول البيت وعوض أن يترك إخوانه من الحجاج يطوفون ولا يزاحمهم، يدخل معهم في طوافهم ويبدأ يقوم بطواف تطوعي.

إن هؤلاء وأولئك تنقصهم ثقافة الحج ومعرفة معانيه ودلالاته ومقاصده العظيمة يتعلمون منها فقه الأولويات وكيفية تحصيل الأجر، فعوض أن يزاحموا إخوانهم الطائفين، يمكنهم أن يقوموا بعمل آخر يتقربون به إلى الله، كقراءة القرآن الكريم وذكر الله والاستغفار والدعاء والنظر في الكعبة والتأمل فيها... وهكذا يؤجرون مرتين: مرة كونهم أشفقوا على إخوانهم الحجاج وخففوا عنهم ولم يزاحمهم في طوافهم، ومرة كونهم قاموا بعبادة على الوجه الأكمل، وهذا الفهم لن يتأتى إلا بثقافة شاملة تعتبر الحج عبادة وأخلاقاً وفناً وانضباطاً. فإذا لم يتعلم المسلم الرحمة في هذه الأماكن المقدسة والمباركة فأين يتعلمها؟، وإذا لم يتعلم التعاطف والأخوة هناك فأين يتعلمها؟، فرينا سبحانه واحد والإسلام ويدعو المسلمين إلى أن يكونوا كالجسد الواحد كالبنيان يشد بعضه بعضاً، إن هذه المعاني لا بد للحاج أن يستحضرها وهو يطوف مع إخوانه الحجاج بمختلف أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وأصولهم حتى يحصل التآزر والتعاون على البر والتقوى في رفق وعطف على ضعفائهم والعجزة منهم، لأن حرمة المسلم أعظم عند الله من كل شيء، قال صلى الله عليه وسلم وهو ينظر إلى الكعبة: «ما أعظمك وأعظم حرمتك، إلا أن المؤمن أعظم عند الله حرمة منك»⁽¹⁾، فهذا الحديث شاف وكاف لتحسين أخلاقنا وتصحيح سلوكنا ونحن نطوف بالبيت أو نقوم بأي شعيرة من شعائر الحج لكي نحافظ على حرمة إخواننا المسلمين لأن الله أمر بذلك، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا بمكانة حرمة المسلم عند الله وتعظيمه لها، فحري بنا أن نعظم ما عظمه ربنا عز وجل فإن ذلك من تقوى القلوب.

المبحث الثاني

صلاة ركعتين خلف مقام إبراهيم

بعد انتهاء الحاج من طوافه بالبيت يسن له أن يصلي ركعتين خلف مقام إبراهيم، يقرأ في الأولى بسورة الكافرون وفي الثانية بسورة الإخلاص، شكراً لله على نعمة الحج أولاً، وتعبيراً على الوفاء لأبينا إبراهيم عليه السلام ثانياً، فالصلاة خلف مقام إبراهيم دليل على استمرار الحنيفية الإبراهيمية وامتدادها في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، والحاج وهو يصلي خلف مقام إبراهيم يشعر أنه يجدد عهده مع أبيه إبراهيم الذي سماه مسلماً، استجابة لندائه القديم وآذانه الأول، وهذا دليل على المحبة والإتباع للدين الواحد الذي جاء به جميع الأنبياء والرسل وهو دين الإسلام والاستسلام لله رب العالمين.

إن من مقاصد صلاة هاتين الركعتين هو منح المسلم نوعاً من الراحة الجسدية والنفسية بعد تعب الطواف بالبيت سبعة أشواط، وهذا دليل على أهمية الترتيب في المناسك وعلى الانضباط والنظام فيها والفنية في أدائها، فهذه الصلاة التي تكون بعد الطواف بالبيت وليس قبله تعتبر زيادة في القرب من الله عز وجل جسداً وروحاً، فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، كما تعتبر تقوية للصلة بين العبد وربّه وخصوصاً في هذا المكان، بالإضافة إلى ما تعنيه هذه الصلاة من الذلة والخضوع والاستسلام لله الواحد الأحد.

إن المسلم وهو يؤدي هاتين الركعتين باطمئنان وخشوع وخضوع لله الواحد القهار يستحضر هذه المعاني بقلبه وعقله ووجدانه وروحه وكيانه كله بعيداً عن الزحام وأماكن المضايقة، فخلف مقام إبراهيم ليس بالضرورة أن يكون قريباً منه، وإنما على امتداد هذا الخلف، وإذا لم يتيسر ففي أي مكان في بيت الله الحرام تجنباً لأذية المسلمين من الحجاج وخاصة الطائفين الذين لم يكملوا طوافهم بعد أو الذين بدؤوا في الطواف، لأن هذه الصلاة في الزحام لن تؤدي كما يجب وعلى الوجه الأكمل. فما يفعله بعض الناس من حرصهم على الصلاة خلف مقام إبراهيم مباشرة رغم الزحام الكثيف مخالف لشرع الله ولسنة النبي صلى الله عليه وسلم ومعارض لديننا الحنيف، فتجد هؤلاء الحجاج يرتبطون بالأيدي مكونين بذلك دائرة خلف مقام إبراهيم مباشرة، ثم يدخل أحدهم وسط هذه

الدائرة ليصلي ركعتين، حتى إذا انتهى منهما بعجالة واضطراب ودون اطمئنان ولا خشوع يدخل آخر في نفس الدائرة ويعمل نفس العمل وهكذا دواليك، فمتى كانت الصلاة تؤدي بهذا الشكل من السرعة والعجلة والاضطراب؟ هل هي صلاة الخوف أم صلاة الحرب في بيت كله أمن وأمان وسلام؟، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾^(١)، وحتى صلاة الخوف أو صلاة الحرب فإنها لا تؤدي بهذا الشكل من العجلة والسرعة، إن هذا العمل هو نتيجة الحرص الشديد على الصلاة خلف مقام إبراهيم مباشرة رغم الزحام، علماً بأن هذه الصلاة يمكن أن يؤديها الحاج في أي مكان في بيت الله الحرام بكل أخلاق وأدب وفنية في الأداء، خشوعاً وخضوعاً وذلاً واستسلاماً لله رب العالمين، تخفيفاً على إخوانه من الحجاج ويعيداً عن مواطن الزحام وأماكن الاختلاط كما يحدث في الطواف حول البيت.

إن هذه الثقافة القائمة على العبادة الصحيحة والأخلاق الحسنة والانضباط والفنية في الأداء هي التي يحتاجها كل مسلم عموماً ويحتاجها الحاج إلى بيت الله الحرام على الخصوص، وهذه الثقافة لا تتحقق إلا بمعرفة روح المناسك ومعانيها العظيمة ومقاصدها الجليلة التي تمنح السلوك القويم والأخلاق الحسنة والأداء الجيد المنظم والمنضبط، وترفض الفوضى والتخليط والأخلاق السيئة، لأنها تعتبر هذه المناسك عبادة لله عز وجل لا بد أن تصاحبها الأخلاق الحسنة والمعاملات الطيبة مع الخالق والمخلوق.

المبحث الثالث

شرب ماء زمزم

حينما ينتهي الحاج من صلاة ركعتين خلف مقام إبراهيم مستحضراً تلك المعاني المذكورة سالفاً، وبعدما ارتاح جسده وارتاحت روحه بهاتين الركعتين وقرت عينه بهما، يستحب له أن يشرب من ماء زمزم، الماء المبارك الذي يروي به عطشه الجسدي والروحي وهو يرتشفه في لفة المشتاق الظمان الذي عثر على الماء بعد عطش دام طويلاً، فشرب ماء زمزم دليل على الارتواء الجسدي والروحي معاً، قال صلى الله عليه وسلم: «ماء زمزم لما شرب له»⁽¹⁾، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنه طعام طعم»⁽²⁾، ولذلك يستحب للمسلم أن يسأل الله من فضله ويدعوه بما شاء وهو يشرب هذا الماء المبارك.

والمسلم وهو يشرب ماء زمزم يستحضر تاريخ هذا الماء وقصته مع أمنا هاجر وابنها الرضيع إسماعيل عليه السلام، وكيف من الله عليهما بهذا الماء المبارك في مكان قليل الماء وفي واد غير ذي زرع، لأن استحضار هذه المعاني يشعر الحاج بقيمة هذا الماء عند الله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾⁽³⁾، فبماء زمزم أنقذ الله روح الرضيع وأمه من الهلاك والموت المحقق استجابة ليقينها في الله وتوكلها عليه، فبهذا الماء تربى ولدها إسماعيل عليه السلام. فماء زمزم يدل على الفرج والرحمة بعد الصبر والتحمل والابتلاء، فهذا الماء سيظل شاهداً وإلى يوم القيامة على إيمان أمنا هاجر وصبرها واحتسابها ووثوقها بربها، فالحاج وهو يرتوي من ماء زمزم يستحضر هذه المعاني فتزيده إيماناً وصبراً واحتساباً وثقة بالله سبحانه وتعالى، وهذه كلها دروس وعبر ومواعظ يعلمها لنا الحج وتمنحها لنا مناسكه لتعيننا على السير إلى الله والثبات على صراطه المستقيم بكل ثقة ويقين في الله عز وجل. فمن معاني ماء زمزم أن شرب المسلم له يعبر عن امتداده لجده إسماعيل عليه السلام، يشرب من نفس الماء الذي شرب منه وينهل من نفس المنبع الذي نهل منه، وهذا دليل على الوفاء بالعهد والسير على طريق الإسلام وملته، يشهد على ذلك تلهف الحجاج للارتشاف من هذا الماء المبارك والارتواء منه بعد العطش والظما.

(2) رواه مسلم، وزاد أبو داود: «وشفاء سقم»

(1) رواه أحمد وابن ماجه

(3) سورة الأنبياء، الآية: 30

المبحث الرابع السعي بين الصفا والمروة

إن السعي بين الصفا والمروة كالطواف ولكن بصورة أخرى، فبالإضافة إلى كونه من شعائر الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾، فإنه يحمل هو الآخر أكثر من دلالة وأكثر من معنى وأكثر من مقصد، إنه يذكرنا بالإنسان الأول الذي سعى بين الصفا والمروة وهي أمنا هاجر وبقيتها مع زوجها إبراهيم عليه السلام الذي تركها مع ابنها الرضيع إسماعيل عليه السلام بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام.

كما يذكرنا السعي بين الصفا والمروة بأروع الصور في الصبر والتوكل على الله والاعتماد عليه التي رسمتها تلك المرأة الصالحة للمسلمين وغيرهم بيقينها أن خالقها لن يضيعها، فحينما علمت من زوجها أن الله هو الذي أمره بالرحيل وبتركها مع وليدها قالت بصوت المرأة المؤمنة الواثقة بربها كلمتها الخالدة: «لن يضيعنا»⁽²⁾، فالسعي بين الصفا والمروة يذكرنا بهذه المعاني الخالدة التي تركتها هذه المرأة الصالحة في نفوس المؤمنين. والحاج وهو يسعى بين الصفا والمروة بجسده لا ينبغي أن تغيب عن عقله وروحه ووجدانه هذه المعاني الإيمانية العظيمة.

ومن دلالات هذه الشعيرة أيضا تذكر المسلم بالصراط الذي أمر الله عباده أن يسيروا عليه، وذلك حين يسأل المسلم ربه في كل صلاة أن يهديه إليه ويشته عليه قائلا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾⁽³⁾، فهو صراط مستقيم وواحد ولا اعوجاج

(1) سورة البقرة، الآية: 158

(2) أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ج. 6، 1379، ص: 401.

(3) سورة الفاتحة، الآية: 6

فيه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾⁽¹⁾، والسعي بين الصفا والمروة بقدر ما يذكر الحاج بصراط الله المستقيم يذكره أيضا بصراط الآخرة الذي سينصب للعباد يوم القيامة، فيتذكر الحاج أعماله وتقصره وتفريطه في جنب الله، مما يساعده على التوبة والإنابة إليه فيسأله في هذا المكان المبارك المغفرة والثبات على صراطه المستقيم في الدنيا ويرجوه التوفيق لاجتياز الصراط والمرور عليه بسلام في الدار الآخرة، إنه يسأله اجتياز المؤمنين ومرور المتقين المقبولين عند الله جل وعلا. كما يذكر السعي بين الصفا والمروة الحاج بالميزان فيشعر وكأنه بين كفتيه أو طرفيه، فيذكره ذلك بميزان يوم القيامة حيث العدل والقسط، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾⁽²⁾، ويذكره التردد بينهما يوم العرض على الله ويتردد العبد على باب سيده لخدمته والإخلاص له، ينتظر رحمته ويرجو عفوه ويطمع في قضاء حاجته. فالحاج وهو يسعى بين الصفا والمروة ويعيش هذه المعاني ويستحضرها بروحه وعقله ووجدانه تدربه على طاعة الله وتحفزه على ذلك وتعينه عليه، فحينما يذكره السعي بين الصفا والمروة بصراط يوم القيامة فإن ذلك يحفزه على العمل الصالح والثبات على صراط الله المستقيم في الدنيا وعلى الاستعداد لصراط الآخرة وليوم المرور والاجتياز، فالسعي بين الصفا والمروة لم يشرع فقط للمشبي والذهاب والإياب والهولة سبعة أشواط فحسب، وإنما شرع من أجل استحضار هذه المعاني الجليلة التي يوحى بها السعي بين الصفا والمروة، وهذا هو الجانب الروحي في السعي أو ما يسمى بروح السعي، أما أن يسعى الحاج بجسده ولا يستحضر هذه المعاني ولا يعيشها بعقله وبوجدانه وبشعوره، فإنه لا يحقق روح السعي الذي هو مقصد من مقاصد هذه الشعيرة الإسلامية العظيمة.

والسعي بين الصفا والمروة مدرسة يتعلم فيها الحاج دروسا في النظام والانضباط والتفنن في الأداء، وهذه الفنية تتجلى في انقسام السعي بين الصفا والمروة إلى حالتين

(1) سورة الأنعام، الآية: 153

(2) سورة الأنبياء، الآية: 47

من السعي، فالحاج وهو يسعى لا يحتفظ بنفس المشية العادية التي بدأ بها سعيه، وإنما يغيرها بين العلمين الأخضرين بما يسمى بالخَبَب وهو نوع من الإسراع في المشي وهو سنة للرجال القادرين دون الضعفة والنساء، وهذه الفنية في الأداء تعتمد على تكسير الرتابة والروتين الذي قد يخلقه كثرة المشي العادي، ففي تغيير حالة السعي من المشي العادي إلى الخَبَب يحدد الحاج نشاطه وحركته وحيويته من خلال ما تحدثه هذه السرعة في المشي أثناء السعي من تنشيط للدورة الدموية حيث ينشط الجسد وتخف الروح ويطمئن القلب.

وما قلناه عن أخلاق الحاج وسلوكه أثناء طوافه بالبيت، نقوله كذلك عن سعيه بين الصفا والمروة، فلا ينبغي للحاج أن يؤدي إخوانه من الحجاج بمزاحمتهم وعرقلة طريقهم، فهناك من الحجاج من يجعل من السعي بين الصفا والمروة نوعاً من السباق والتسابق، مما يؤدي إلى التصادم والتدافع، وهذا كله مخالف لشرع الله ولسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالمسلم عموماً والحاج خصوصاً في هذا المكان المقدس يلتزم بخفض الجناح لإخوانه المسلمين وبالتعاون معهم على البر والتقوى، فيساعد الضعيف ويعطف على العاجز ويأخذ بيد الشيخ ويفسح له ولا يزاحمه، قال صلى الله عليه وسلم: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»⁽¹⁾، كما يتصف بالتراحم والعطف والأخوة التي جمعت الحجاج جميعاً في هذا المكان الطاهر، فلا تصدر عنهم سلوكاً وأخلاقاً لا تليق بقدسية هذا المكان لعل الله يرحم الجميع، قال صلى الله عليه وسلم: «الراحمون يرحمهم الرحمن»⁽²⁾، وقال عليه الصلاة والسلام: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»⁽³⁾، وقال صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»⁽⁴⁾ فمن لا يُرْحَم لا يُرْحَم، يتذكر الحاج في سعيه بين الصفا والمروة رحمة الله لتلك المرأة الصابرة المحتسبة الواثقة برحمة الله لها ولرضيعها وإكرامه لهما بماء زمزم، ويستحضر هذه المعاني ويعيشها بقلبه وعقله وروحه فيسأل الله الرحمة له ولإخوانه

(1) رواه أحمد

(2) رواه مسلم

(3) رواه الطبراني والحاكم

(4) رواه الطبراني والحاكم

الحجاج الذين يسعون معه وللمسلمين الذين يسعون في هذه الأرض باستمرار وفي طاعة الله عز وجل. ففي السعي يجتمع الحجاج بمختلف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم في اتجاه واحد، لهم منطلق واحد ووصول واحد وهذا الأمر يذكرهم بوحدة الهدف والمقصد، فكلمة الصفا تحيل لغة على التصفية أي تصفية القلب والعقل والوجدان تصفية كاملة، وكلمة المروة تحيل لغة على ارتواء هذه العناصر بالخير والإيمان والعمل الصالح لدى المسلم، وهذه ميزة الأمة المسلمة التي وصفها الله بالخيرية ويتميز أفرادها بوحدة الصف مهما اختلفت جنسياتهم وأصولهم، فلسان حالهم كما يقول الشاعر:

يَا أَخِي فِي الْهِنْدِ أَوْ فِي الْمَغْرِبِ أَنَا مِنْكَ أَنْتَ مِنِّي أَنْتَ بِي
لَا تَسْلُ عَنْ عُنْصُرِي عَنْ نَسَبِي إِنَّهُ الْإِسْلَامُ أُمِّي وَأَبِي

فالسعي بين الصفا والمروة يذكر الحجاج جميعاً بأنهم جنود من جنود الله، يجاهدون في خندق واحد وغايتهم واحدة، قد ذابت الأشكال والألوان واللغات والمناصب والجاه في وحدة العقيدة، وانصهرت في بوتقة الإسلام الذي لا يفرق بين الناس ولا يفضل بعضهم على بعض إلا بالتقوى والعمل الصالح والتقرب إلى الله عز وجل بالطاعات. والسعي بين الصفا والمروة كغيره من المناسك ينزع عن الحاج صفة التكبر والاستعلاء على الناس، فكل الحجاج يسعون ويرملون حاسري الرؤوس لابسين بردي الإحرام فقط، وبشكل واحد وموحد ليشعر كل منهم بعدم الفرق بينه وبين غيره، وبأنهم كلهم عبيد خاضعون لله سبحانه وتعالى. فالحاج لا يسعى بين الصفا والمروة بجسده وجوارحه فحسب، ولكنه يسعى بعقله ووجدانه وروحه أيضاً حينما يتمثل هذه المعاني الجليلة التي تعينه على تحقيق روح السعي جسداً وروحاً.

إن السعي بين الصفا والمروة مدرسة يتعلم فيها الحاج الثقة بالله والتوكل عليه من خلال استحضار قصة أمنا هاجر وسعيها بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء لها ولرضيعها، إنها الثقة بالله والتوكل عليه القائمين على الحركة والأخذ بالأسباب، وهذا هو المعنى الحقيقي للسعي الذي يختلف عن المشي ويتميز بالجد والحركة والنشاط مع الثقة بالله والتوكل عليه والأخذ بالأسباب، فأما هاجر عندما نظقت بكلماتها الخالدة: «لن يضيعنا»، فإنها رغم ثقتها هذه بالله عز وجل لم تتواكل ولم تبقى جالسة تنتظر في مكانها، لأنها تعلم علم اليقين أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، بل أخذت تسعى في مكان غير

ذي زرع وفي صحراء لا ماء فيها ولا نبات، كما أنها لم تسع مرة واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً ثم لما كلت وملت من السعي استسلمت للقدر والأقدار، بل استمرت في سعيها حتى بلغت سبعة أشواط ذهاباً وإياباً رغم الجهد المضي الذي يتطلبه السعي، ليأتي بعد ذلك الفرج من الله وتنزل رحمته وينبع الماء من تحت رجلي الرضيع.

فأما هاجر في سعيها بين الصفا والمروة تعلم المسلمين المعنى الحقيقي للسعي وترسم لهم أروع الصور في الثقة بالله والتوكل عليه مع الحركة والأخذ بالأسباب، وهذا ما ينقص كثيراً من المسلمين اليوم. ولذلك فإن من مقاصد السعي بين الصفا والمروة إعطاء درس للمسلم في الثقة بالله والتوكل عليه من خلال سعي أول امرأة مؤمنة محتسبة وصابرة ومتوكلة على الله ووثقة بوعددها وللمؤمنين من بعدها في كل مكان وفي كل زمان. وهذا درس بليغ لكل إنسان عموماً وللمرأة المسلمة على الخصوص، ينبغي لها أن تعيه وترجمه في واقع حياتها، إنه درس يعلمها كيف تثق بربها وتتوكل عليه ولا تجزع إذا ما اشتد عليها البلاء وتوالت عليها الخطوب والنوائب وحرمت من بعض حقوقها، وأن تكون على ثقة وإيمان كبيرين بأن ربها الذي خلقها لن يضيعها ولن يتخلى عنها أو ينساها، بل تتيقن أن الفرج قادم لا محالة، لأن بعد العسر يسراً، ولأن الصبر مفتاح الفرج الله. وهذا درس آخر يمنحه السعي بين الصفا والمروة للمرأة عموماً والحاجة خصوصاً، إنه درس الصبر الذي يعتبر جهاداً بالنسبة للمرأة حينما تستشعر أن الحج هو ميدان جهادها، كما قال صلى الله عليه وسلم: «جهادكن الحج»⁽¹⁾، فالمرأة تتعلم من السعي في الحج درس الصبر امتثالاً لأوامر الله عز وجل، فتصبح لا تشبه وساوس الشياطين من الإنس والجن على دورها الحقيقي الذي خلقت من أجله مهما تعرضت للغواية والتزيين ولكل ما يعارض عفتها وكرامتها ويخالف شريعة ربها.

إن الإسلام من خلال شعيرة السعي بين الصفا والمروة يدعو جميع المسلمين للسعي والفاعلية والحركة والتوكل على الله، ويرفض التواكل والجمود والخمول والتكاسل، لأن السعي يمتاز كما قلنا بالحركة والجد والنشاط والتوكل على الله مع استحضار نية التقرب إليه وطاعته بهذا العمل الذي يسعى فيه وإليه كل مسلم، فالتوكل على الله في سعي المسلم أمر أصيل في الإسلام، ولكن على أن يكون ذلك

السعي ضمن الحدود التي وضعها الله سبحانه وتعالى وعلى ضوء المصالح البشرية التي هو أعلم بها، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾⁽¹⁾. فقد حدد الإسلام في السعي بين الصفا والمروة للرجل مكانه وللمرأة مكانها احتراماً لخصوصية كل واحد منهما أولاً، وحتى لا تصطدم المرأة بأخيها الرجل وتتزاحم معه أثناء السعي ثانياً. وهكذا يعلم السعي كلاً من الرجل والمرأة كيف يحترم كل منهما حدود الآخر وخصوصيته، ليس في الحج فحسب، وإنما في حياتهما العملية أيضاً، فالسعي يعلم المرأة والرجل على حد سواء كيف يقف كل واحد منهما عند حدوده ولا يتجاوزها ولا يقوم بدور الآخر، فلكل منهما دوره في الحياة، فالرجل والمرأة يسعيان معاً في الحياة الدنيا جنباً إلى جنب بدون تبادل في الأدوار كما يسعيان بين الصفا والمروة في الحج، فهما معاً جناحاً المجتمع يكمل بعضهما بعضاً، فما طار طائر ولا حلقت طائفة بجناح واحد، وهذا التعاون والتكامل بين الرجل والمرأة في السعي مقصد عظيم من مقاصد السعي بين الصفا والمروة ودرس من الدروس الكثيرة والمهمة التي يعلمنا إياها الحج وتمنحنا إياها هذه الشعيرة العظيمة.

(1) سورة الملك، الآية: 14

المبحث الخامس خلق شعر الرأس أو تقصيره

إن الخلق أو التقصير واجبان من واجبات الحج أو العمرة، ويشترط فيهما معا تعميم الرأس كله خلقا أو تقصيرا عند الرجل، أما بالنسبة للمرأة فقد شرع لها أن تقص من شعرها قدر أنملة تكريما لها واحتراما لجمالها وأنوثتها، وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحلقين ثلاثة دعوات وللمقصرين دعوة واحدة فقال: «اللهم ارحم المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: اللهم ارحم المحلقين، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: اللهم ارحم المحلقين، قالوا: والمقصرين، قال: والمقصرين»⁽¹⁾، وهذا التفضيل للخلق على التقصير له معان جليلة ومقاصد عظيمة، فإذا كان تقصير الشعر دليل على الخضوع والانقياد والطاعة لله عز وجل، فإن خلقه دليل على كمال الخضوع وكمال الانقياد وكمال الطاعة له، كما أنه دلالة على كمال الإتياع والإقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد يعز على الإنسان خلق شعره باعتباره جزءا من جماله، ولكنه في الحج أو في العمرة يحلقه امتثالاً لأمر الله عز وجل ومسترخصا هذا الأمر في سبيله، فقد روى البخاري في صحيحه قال: «..ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية في بضع عشر مائة من أصحابه حتى إذا كانوا بذي الحليفة قلد رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدي وأشعر.. قال لأصحابه قوموا فانحروا ثم احلقوا قال فو الله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يبق منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا رسول الله أتحب ذلك، أخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك نحر هديه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق لبعض حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا»⁽²⁾، وما ذلك إلا لأن المسلمين تضايقوا بادئ الأمر من موافقة النبي صلى الله عليه وسلم على الشرط الذي أملاه سهيل بن عمرو في صلح الحديبية، بل ازداد ضيقهم لما أقبل أبو جندل «ابن سهيل بن عمرو»

(2) رواه البخاري

(1) رواه البخاري ومسلم

فأراً من المشركين فرُدَّ إليهم، وأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله سيجعل له ولن معه من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. فالذي قصر شعره رغم امتثاله لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يبلغ درجة الذي حلق شعره، لأن هذا الأخير لم يتردد في الامتثال، فمن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: « قيل له لم ظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين واحدة فقال: إنهم لم يشكوا»⁽¹⁾، أي لم يترددوا في أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك دعا ثلاثاً للمحلقين وواحدة للمقصرين، امتثالاً لأمر الله عز وجل وتطبيقاً لكلامه لأنه هو الذي قدم في كتابه العزيز الحلق وفضله على التقصير، قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾⁽²⁾، فالخلق هنا يصبح له مقاصد عظيمة ودلالات جليلة تتجاوز حلق شعر الرأس إلى حلق كل ما تحتويه أعضاؤه وحواسه من المعاني، إنه حلق للشرك والكفر والنفاق والوثنية ولكل الأفكار السيئة التي تدور في رأس الإنسان وتخطر على عقله، إنه حلق لتطهير العينين من النظر في الحرام، والفم من أكل الحرام، واللسان من الغيبة والنميمة وسوء الكلام، والأذن من سماع الحرام، فالمسلم عموماً والحاج خصوصاً حينما يخلق شعر رأسه ويتمثل هذه المعاني والمقاصد ويعيش وجدانه وكيانه معها فإنه يحقق بذلك روح هذه الشعيرة.

فالخلق الذي يقصد إليه الإسلام يقوم على بعدين أساسيين هما: البعد المادي والبعد المعنوي، حيث يكمل أحدهما الآخر، فأما البعد المعنوي للحلق وهو الأهم فإنه يهدف إلى تعميق معاني الطاعة والامتثال والاستسلام لله رب العالمين في نفس المسلم. فقد كان حلق شعر الرأس عند العرب عادة تدل على الامتثال والاستسلام، ولذلك كان أحدهم حينما يريد أن يعبر عن امتثاله واستسلامه لآخر كان يخلق شعر رأسه ويرسله إليه كدليل على استسلامه وامتثاله له، وأما البعد المادي للحلق فإنه يهدف إلى الخروج بما بقي للحاج من زينة الحياة الدنيا وهو شعره، فهو يخلقه طاعة لله عز وجل وامتثالاً لأوامره وتقرباً إليه.

وحلق شعر الرأس في موسم الحج يدل كذلك على وحدة المسلمين وتشابههم،

(2) سورة الفتح، الآية: 27

(1) رواه البيهقي

وذلك حينما يخلقون جميعاً شعور رؤوسهم ويتحللون من إحرامهم فيشكلون بذلك صورة رائعة تلك التي جملتهم وزيتهم وزادهم الحلق حسناً وجمالاً ونقاءً ونظافة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾⁽¹⁾، أي يزيلوا عنهم الأدران والأوساخ بالحلق وقص الشارب وتقليم الأظافر والتطيب لأن الإسلام دين الجمال والنظافة والنقاء، وفي ذلك كله تعظيم لشعائر الله عز وجل.

كما أن حلق شعر الرأس أو تقصيره يدل على الأمن النفسي والاطمئنان الروحي والقلبي عند المسلمين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾⁽²⁾، ويتجاوز ذلك ليصبح دلالة على الغلبة والنصر والفتح المبين أيضاً، وهذه علامة يتميز بها المسلمون عن غيرهم في كل زمان وفي كل مكان، فالحاج وهو يخلق شعر رأسه أو يقصره يقصد بذلك الانضمام إلى كوكبة المؤمنين والمسلمين عبر التاريخ الإسلامي.

(1) سورة الحج، الآية: 29

(2) سورة الفتح، الآية: 27

الفصل الرابع

الوقوف بحرفة، الإقامة بمُنَى، النزول بمزدلفة أو المبيت بها

- المبحث الأول: الوقوف بعرفة
- المبحث الثاني: الإقامة بمُنَى
- المبحث الثالث: النزول بمزدلفة أو المبيت بها

المبحث الأول الوقوف بعرفة

في يوم التاسع من ذي الحجة وبعد أن تطلع الشمس ينطلق الحاج من منى إلى عرفة وهو يلي قائلا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»، رافعا بها صوته، وإذا وصل عرفة يتأكد من وجوده داخل حدودها لأن الوقوف بها ركن من أركان الحج لا يجبر بالدم، قال صلى الله عليه وسلم: «الحج عرفة»⁽¹⁾، ثم يصلى الظهر والعصر جمعا وقصرأ بأذان واحد وإقامتين، والمقصد من هذا الجمع والقصر هو أن يتفرغ الحاج للدعاء لأن الدعاء في هذا اليوم المشهود بقدر ما يشبع رغبة المسلم في التضرع يكون عاملا مهما في تركيز عبوديته لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾⁽²⁾، فجعل سبحانه وتعالى دعاء عبادة، وخصوصاً إذا تضمن هذا الدعاء معاني العبودية والاستسلام والخضوع والتفويض، كدعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: «اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء همي وغمي»، قال فما قاله عبد قط إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحا، قالوا يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات، فقال، أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»⁽³⁾، أو دعائه صلى الله عليه وسلم المسمى بسيد الاستغفار وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: ومن قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن

(2) سورة غافر، الآية: 60

(1) رواه أحمد

(3) رواه أحمد والطبراني وابن حبان

بها فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة»⁽¹⁾، وقال صلى الله عليه وسلم: «إن ربكم حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً»⁽²⁾، بل جعل ترك الدعاء سبباً في غضب الله عز وجل، فقال صلى الله عليه وسلم: «إنه من لا يسأل الله تعالى يغضب عليه»⁽³⁾، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «الدعاء هو العبادة»⁽⁴⁾، وجعل صلى الله عليه وسلم الدعاء فيه أفضل الدعاء حين قال: «أفضل الدعاء، دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»⁽⁵⁾، لأن الدعاء في هذا اليوم العظيم يكتسب معنى خاصاً يقصد به تركيز معنى الإنابة والتوبة في نفس الحاج لتكون إنابة حقيقية وتوبة نصوحاً كما كانت إنابة وتوبة أبينا آدم عليه السلام.

ففي هذا اليوم يجتمع الحجاج جميعاً في هذا المكان المبارك شعناً غبراً حاسري الرؤوس، إنه الإيمان ولا غير، والإتيان طوعاً ولا غير، وتلبية نداء الله الخالد ولا غير.

إن هذه الدلالات الروحية هي التي حثت ضيوف الرحمن وأوقفتهم في هذا الموقف العظيم، لا هم لهم إلا رضا الله جل وعلا، ولا يؤرقهم إلا أن يتقبل منهم طوافهم وسعيهم ووقوفهم ومبيتهم ورميهم ونحرهم وجميع مناسكهم، وأن يغفر الله لهم ذنوبهم جميعاً، فهم يرفعون أكف الضراعة لله عز وجل متذللين له بحسن السمع والطاعة، قد أسلموا أرواحهم لتسبح في جنان مغفرته ولتهطل عليها سحائب رحمته.

إن هذا الموقف المفعم بالخشوع والجو الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم لدلالة على عظمة الإسلام الذي يستطيع أن يجمع القلوب والعقول والأجسام على صعيد واحد ولباس واحد وعلى هدف واحد ورجاء واحد وخوف واحد.

إن هذا اليوم العظيم يشبه يوم القيامة والعرض على الله، وهذا مقصد من مقاصد الوقوف بعرفة يتذكر المسلم من خلاله وقوفه يوم القيامة بين يدي الله، اليوم الذي تدنو فيه الشمس من العباد وتتطاير فيه صحفهم، لقد جعل الله للناس هذا اليوم لعلهم يتذكرون ويعتبرون ويتوبون إلى الله ويرجعون إليه ويسیرون على صراطه

(2) رواه أبو داود والترمذي

(4) رواه أحمد

(1) رواه البخاري

(3) رواه الترمذي

(5) رواه مالك

المستقيم، ففي هذا اليوم يعتق الله عز وجل فيه رقاب الناس من النار ويغفر ذنوبهم، قال صلى الله عليه وسلم: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة..»⁽¹⁾، وإذا كان يوم عرفة شبيهاً بيوم القيامة من حيث جلال الموقف ورهبته فإن هناك فرقاً كبيراً بينهما، ففي هذا اليوم عمل ولا حساب، وفي ذلك اليوم حساب ولا عمل، فيوم عرفة جعله الله فرصة للتائبين وللعائدين وللغارين من الله إلى الله، قال صلى الله عليه وسلم: «صوم عرفة كفارة ستين، سنة قبله وسنة بعده»⁽²⁾، فما أروع هذا الدين وما ألطف الله جل وعلا بعباده وما أكرمه بهم وما أحلمه عليهم وما أرحمه بهم، إنه يمنحهم فرص التوبة والإنابة ويُسَخِّرُ لهم أسبابها، فحتى غير الحاج لا يحرمه الله تبارك وتعالى من فضله وكرمه، فإذا كان الحاج قد نُهي عن الصوم يوم عرفة رحمة به وشفقة على تعب الذي قد يلحق به، وحتى لا يضعفه الصوم عن الدعاء في ذلك اليوم، فقد أباح الإسلام الصيام لغير الحاج ليشترك إخوته الحاج في عبادتهم لله عز وجل ويعيش معهم بروحه ووجدانه وكيانه كله في هذه الرحاب الطاهرة ويقاسمهم نفس المشاعر والأحاسيس.

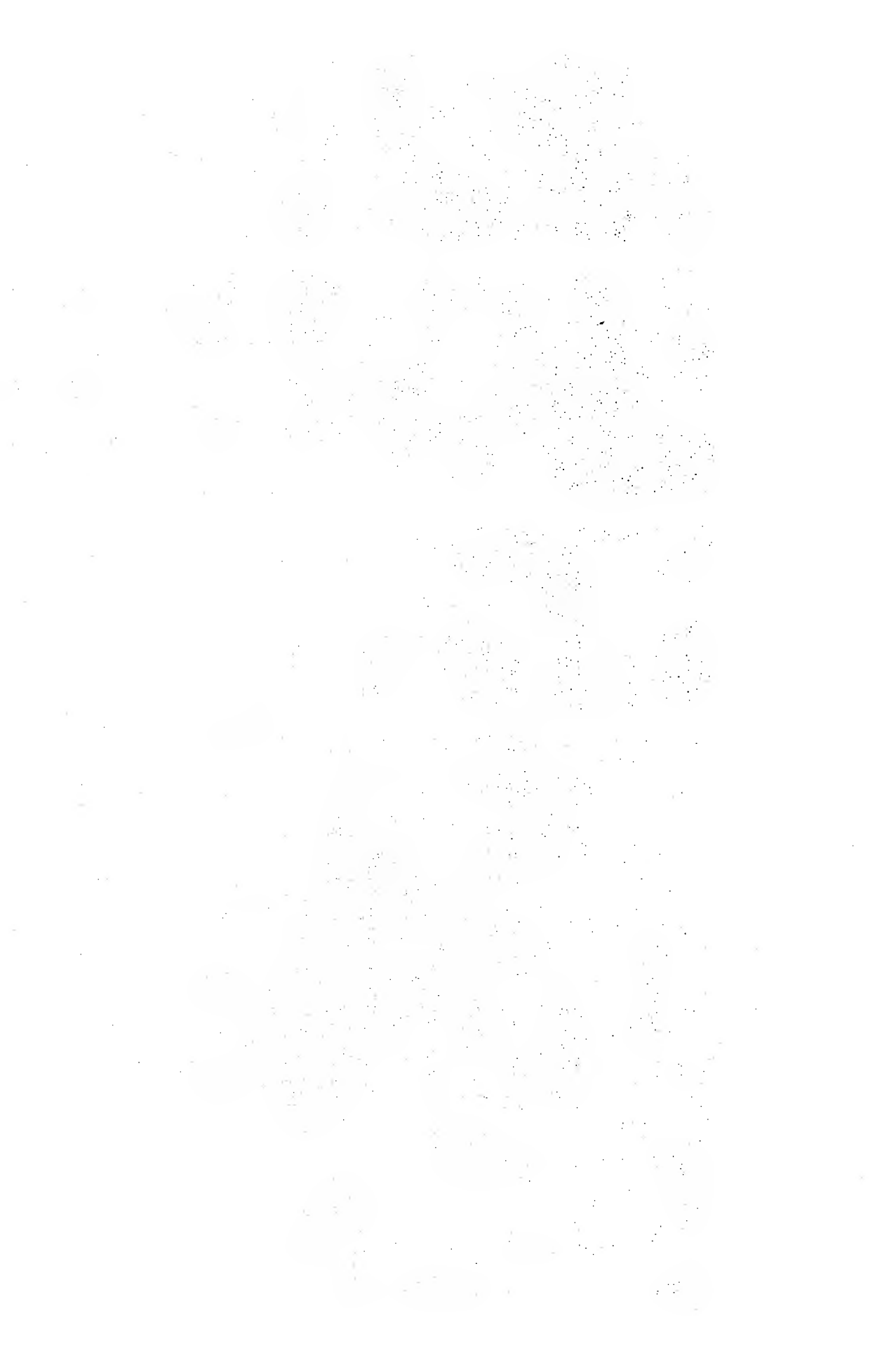
وفي يوم عرفة يستشعر الحاج قربه من ربه عز وجل وبعده عن الشيطان الرجيم، ففي هذا اليوم العظيم يتقرب الله جل وعلا من عباده، قال صلى الله عليه وسلم: «..وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول ما أراد هؤلاء»⁽³⁾، وحينما يدنو الله جل جلاله من عباده في هذا اليوم وتنزل رحمته عليهم فإن الشيطان يتعد عنهم، قال عليه الصلاة والسلام: «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيط منه يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام»⁽⁴⁾، فالحاج الواقف بعرفة يستشعر هذه المعاني العظيمة ويعيش في رحابها، ويحس أن الوقوف بعرفة منة عظيمة من الله عز وجل على عباده، فيغمر قلبه اعتزاز بانتمائه لهذا الدين، ويفرح بهذا الفضل العميم وهذا الإسلام الكامل الذي أتمه الله عز وجل ورضيه للمسلمين ديناً، فيجتهد ويعمل على شكر هذه النعمة بالزيادة في الطاعة والتقرب إلى الله والدنو منه، كما دنا هو سبحانه وتعالى من عباده في هذا اليوم العظيم وهذا مقصد جليل يعلمنا إياه هذا الركن العظيم.

(1) رواه مسلم

(2) رواه البيهقي

(3) رواه مسلم

(4) رواه الإمام مالك



المبحث الثاني الإقامة بِمُنَى

إن الإقامة بِمُنَى والمبيت بها يعتبر نقطة انطلاق جميع حجاج بيت الله الحرام للقيام بسائر أعمال الحج، منها ينطلق وإليها يعود، فبعد الوقوف بعرفة والإفاضة منها والنزول بمزدلفة أو المبيت بها يرجع الحاج إلى مُنَى، وبعد أن يطوف طواف الإفاضة ويسعى بين الصفا والمروة يرجع إلى مُنَى، فمُنَى أصبحت مكان إقامته ومركز انطلاقه، وذلك لمدة خمسة أيام بالنسبة للحاج المتعجل وستة أيام بالنسبة لغير المتعجل.

والإقامة بِمُنَى لا تخلو هي الأخرى من معان ودلالات ومقاصد، ففي مُنَى يجتمع الحجاج ليعيشوا أياما معلومات ومعدودات كلها ذكر وعبادة لله عز وجل وتجرد إليه، فمُنَى يجمع بين الغني والفقير، والأبيض والأسود، نساء ورجالا، يعيشون جميعا عيشة واحدة، في مكان واحد وفي زمان واحد متعاونين على البر والتقوى، فقصر الصلاة في مُنَى قصد منه التخفيف على الحاج لكونه مسافرا أولا، ولتفرغ لذكر الله ويكثر منه ويجتهد فيه ثانيا، فالإقامة بِمُنَى مدرسة تدرب المسلم على دوام ذكر الله عز وجل.

كما أن الإقامة بِمُنَى دلالة كذلك على الوحدة بين المسلمين بمختلف أنواعهم وأشكالهم، ومن مقاصدها أيضا تدريب المسلم على النظام والانضباط والحفاظ على الوقت والالتزام به وصرفه فيما ينفع وقضائه فيما يفيد، ولذلك كان المبيت في منى أيام الحج واجبا والحلول فيها قبل غروب الشمس واجبا، وفي المقابل فإن الخروج منها عند انتهاء أعمال الحاج بها يكون قبل غروب الشمس.

أما الحاج الذي لا يخرج قبل غروب الشمس ويتهاون في الخروج، فإن الشرع الحنيف يلزمه المبيت بها إلى اليوم التالي، كنوع من العقوبة على تفريطه في الوقت وعدم احترامه له وتهاونه في الانضباط والنظام. هكذا يعلم الإسلام المسلم كيف يحترم الوقت، لأن الوقت في الإسلام هو الحياة، ويعلمه الانضباط وتنظيم وقته وشغله بما يفيد، لأن الإسلام يرفض اللامبالاة وينبذ الفوضى ويكره العبث بالوقت وتضييعه فيما لا ينفع كما تعلمنا هذه الشعيرة العظيمة التي تعطينا درساً في النظام والانضباط جسداً وروحاً.

إن اسم هذا المكان «مُنى» بضم الميم وليس بكسرهما - كما ينطق بها كثير من الناس من غير الحجازيين - يحمل أكثر من دلالة وأكثر من معنى، فمُنى مشتقة من المُنى، أي ما يتمناه الإنسان في حياته، وماذا يتمنى الإنسان في تلك البقاع المباركة المقدسة غير الرحمة والمغفرة والتواب والعق من النار؟، فتسمية هذا المكان المبارك بهذا الاسم دلالة على بشارة الخير والقال الحسن يتيمن المسلم به رضوان الله ورحمته ومغفرته، فالمسلم ينتبه إلى هذه المعاني العظيمة والمعاني الجليلة التي يوحى بها اسم هذا المكان المبارك والمقاصد السامية التي شرعت من أجلها هذه الشعيرة العظيمة.

إن وجود الحجاج في مُنى وإقامتهم في هذا المكان المبارك لدليل على وحدة أمّيتهم، إنها أمنية الفوز بالجنة والعق من النار، فهذا المكان المبارك يوحد الحجاج حتى في ما يأملون في الله وما يتمنون عليه، فهو سبحانه وتعالى الذي يجمع حجاج بيته في كل سنة ويستضيفهم ويعلم أن أمنية عباده واحدة، فيجمعهم في مكان واحد هو مُنى ليقول لهم أن أمّيتكم كمسلمين واحدة هي الجنة فكونوا أمة واحدة: قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾⁽¹⁾. إن مُنى يصبح مكانا ليس لإقامة الحجاج فحسب، ولكن يصبح مقصدا لتوحيد عقول وقلوب وأرواح الحجاج وليجعل منهم جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وكالبنيان يشد بعضه بعضا.

إن هذه المعاني والمقاصد تجعل الحاج يعيش أيام مُنى في انضباط ونظام و طاعة لله عز وجل، وتبعده عن كل المخالفات مع الخالق ومع الخلق، كما تجعله يحبى هذه الأيام وكل مناه أن يتقبل الله منه عمله فيجتهد في الطاعة والعبادة والتقرب إلى الله بما يحبه ويرضاه، لأن مُنى تظل تذكره بأمنيته العظيمة ومناه الكبيرة وهي رضوان الله والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، ففي مُنى يعيش الحاج هذه المعاني والمقاصد التي يوحى بها اسم هذا المكان لأنها معان تتغذى بها روحه وتتشبع بها نفسه ويطيب بها خاطره ويحمي بها جسده ويطمئن بها قلبه ويرتاح إليها كيانه ووجدانه، وهذا كله من مقاصد هذه الشعيرة العظيمة.

المبحث الثالث النزول بمزدلفة أو المبيت بها

حينما تغرب الشمس يوم عرفة ويمر قليل من الليل يفيض الحجاج من عرفة إلى مزدلفة بسكينة وهدوء امتثالاً لأمر الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾⁽¹⁾، وهذه صورة من أجمل الصور وأروعها تتجسد معانيها ودلالاتها في جموع الحجاج الذين أفاضوا من عرفات في سكينة ووقار إقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حين أفاض من عرفات هو وأصحابه رضي الله عنهم فكان: «يشير إلى الناس بيده ويقول: السكينة السكينة»⁽²⁾، أي الزموا الهدوء وتحروا الطمأنينة والخشوع الذي تمنحه هذه الشعيرة، فأمره صلى الله عليه وسلم الحجاج بالسكينة وتكرار هذه الكلمة مرتين فيه دعوة للنظام والانضباط والتحلي بالأخلاق الحسنة لترجمة تلك السكينة القلبية والروحية التي غمرت قلوب الحجاج وأرواحهم بعدما وقفوا طويلاً في عرفات خاشعين يناجون ربهم ويسألونه المغفرة والرحمة والرضوان.

فالرسول صلى الله عليه وسلم وهو يأمر أصحابه بالسكينة يعلم أمته من بعده كيف تؤدي مناسك الحج في سكينة وهدوء، لأن العجلة من الشيطان وتؤدي إلى مزاحمة الآخرين ومدافعتهم وأذيتهم، وهذا التوجيه النبوي الشريف ليس للحجاج وحدهم، ولكنه توجيه للمسلمين عامة على الانضباط والنظام والتأزر والتراحم والتعاطف فيما بينهم.

إن هذا النداء وهذا التوجيه النبوي الشريف: «السكينة السكينة» بقدر ما هو دعوة للانضباط والنظام والهدوء هو دعوة إلى حسن الأخلاق والتصرف والفنية في الأداء، وما أحوج حجاجنا الميامين اليوم خاصة والمسلمين عامة إلى هذا النداء وهذا التوجيه النبوي الشريف، حتى تكون السكينة شعاراً لهم ليس في الحج وفي هذه الرحاب الطاهرة فحسب، وإنما في حياتهم العملية عموماً.

إن الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة تضيء على حجاج بيت الله الحرام البشارة

(1) سورة البقرة، الآية: 198

(2) رواه مسلم

وتغمرهم بالفرحة بالمغفرة والرحمة والعتق من النار، فنزول الحاج بمزدلفة يدل على بداية حياة جديدة، فبعدما تاب إلى الله من ذنوبه في عرفات، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هاهو يبدأ صفحة بيضاء نقية كما ولدته أمه، وما ذكر الله في هذا المكان المعبر عنه بالاستغفار في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽¹⁾، إلا شكر الله على نعمة المغفرة والتوبة والهداية على ذلك.

ومن مقاصد النزول بمزدلفة والمبيت بها في العراء أو في الخيام تدريب المسلم على الاعتماد على النفس، وتعويده على بساطة العيش والزهد في الدنيا الفانية والطمع فيما عند الله وهو خير وأبقى، بالإضافة إلى تعليمه مبدأ المساواة بين الناس في الإسلام وتعميقه في قلبه، فلا تفضيل بينهم في الأنساب والأعراق والمناصب، ولا فضل لأبيض على أسود، ولا لغني على فقير، ولا لصحيح على سقيم، وإنما التفاضل يكون بالتقوى والعمل الصالح. فالذي جمع حجاج بيت الله في هذا المشعر الحرام إنما هي وحدة العقيدة لا شيء سواها، وفي هذا علاج للنفس من الكبر والذاتية والأنانية والتعالي على الآخرين ومن كل ما يصيبها من الخصال السيئة تجاههم. فقد كانت بعض القبائل من العرب قبل الإسلام تخصص لنفسها أمكنة في مزدلفة، ولا يقفون بعرفات ولا يفيضون منها، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الخمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾⁽²⁾، والخمس هم قريش ومن دان دينهم في الجاهلية، وقد سمو الخمس لتحمسهم، أي تشددهم في دينهم، وكانوا يقولون نحن أهل الله ولنا كسائر الناس، فالنزول بمزدلفة أوالمبيت بها يعلم الحجاج خاصة والمسلمين عامة درساً في مساواة الناس جميعاً بحيث لا تفاضل بينهم، وهذا درس على كل مسلم أن يعيه جيداً حتى تستقيم نفسه على محبة الآخرين والتواضع بينهم وخفض الجناح لهم لأنه جزء منهم ولبنة في بنائهم كما تعلمنا هذه الشعيرة الإسلامية العظيمة.

(1) سورة البقرة، الآيات: 198-199.

(2) رواه مسلم

الفصل الخامس

الهدي، رمي الجمرات، التحلل من الإحرام

- المبحث الأول: الهدي
- المبحث الثاني: رمي الجمرات
- المبحث الثالث: التحلل من الإحرام

المبحث الأول

الهدّي

الهدّي هو تلك الذبيحة - شاة، بقرة، بدنة.. - التي يذبحها الحاج المتمتع أو القارن امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾⁽¹⁾، وطاعة له وتقرباً إليه وتعظيماً لشعائره وابتغاء مرضاته وطلباً لتقواه وشكراً على نعمه، قال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَاعَ وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾⁽²⁾، كما أن الهدّي وسيلة أيضاً لمشاركة الفقراء والمعوزين في الفرحة والأكل والشرب، قال عز وجل: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾⁽³⁾. فالهدّي في الحج بقدر ما هو طاعة وتقرب وعبادة لله سبحانه وتعالى هو وسيلة للتكافل الإنساني بين أفراد المجتمع وهذا مقصد اجتماعي تهدف إلى تحقيقه هذه الشعيرة العظيمة، فالذبح في موسم الحج «الهدّي»⁽⁴⁾، أو في عيد الأضحى «الأضحية» يوفر للفقراء والمساكين والمعوزين طعامهم ويسد جوعهم، لأن هذا التكافل الاجتماعي والإسلامي والشرعي يهدف إلى مواساة الفقراء وإدخال السرور عليهم كما يعلمنا ديننا الخفيف من خلال هذه الشعيرة الجليلة.

ومن مقاصد الهدّي تذكير المسلم عموماً والحاج خصوصاً بقصة نبي الله إبراهيم عليه السلام حينما هم بذبح ولده إسماعيل امتثالاً وطاعة لأمر الله كما رأى ذلك في

(1) سورة البقرة، الآية: 195

(2) سورة الحج، الآية: 37

(3) سورة الحج، الآية: 28

(4) الهدّي خلاف الأضحية، الهدّي منسك من مناسك الحج للحاج القارن أو المتمتع، وأما الأضحية فهي سنة لكافة المسلمين مع الاستطاعة

النام، ولكن الله فداه بذبح عظيم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٣٦﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَتَابَرَهَيْمُ ﴿١٣٧﴾ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلْتُؤُا الْمُبِينُ ﴿١٣٩﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٠﴾ ١١٩ ﴾، فقيام الحاج بهذه الشعيرة إحياء لسته ودليل على محبته والافتداء بفعله. ومن مقاصد الهدى تدريب المسلمين على التضحية ولو بفلذة الكبد، لأن التضحية من هذا النوع دليل على حب العبد لله عز وجل وعلى التسليم المطلق والامثال التام لأوامره في كل شيء، وعلى اليقين في الله والثقة به وبنصره لعباده المؤمنين.

وشعيرة الهدى بقدر ما يقصد منها تدريب المسلم على التضحية والفتداء يقصد منها تدريبه على الطاعة الكاملة والخضوع التام والاستسلام المطلق لله رب العالمين، وهذا درس يعلمه لنا الابن الوفي والبار والمطيع لوالده الذي خلد الله ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَىٰٓ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْهَبُكَ فَأَبْظُرُ مَاذَا تَرَىٰ ١٢٠ ﴾، حيث ستبقى إجابته لوالده تتردد في قلب ووجدان وعقل كل مؤمن حيث كان رده على سؤال والده: ﴿ قَالَ يَتَأَبَّتْ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ ١٢١ ﴾، هكذا يجيب إجابة الولد الرحيم والعطوف والبار بوالده بكل ثقة ويقين في الله جل جلاله امثالاً لأوامره عز شأنه إنها ذرية بعضها من بعض. وهكذا حينما يستحضر المسلم عموماً والحاج خصوصاً هذه المعاني الجليلة يزداد يقيناً بقيمة الأوامر الإلهية ولزوم التسليم لها حتى لو لم يعلم الحكمة فيها لأنها صدرت من لدن حكيم خبير.

ومن مقاصد الهدى وإراقة الدم يوم النحر التخلص من الرذيلة والتزام فضيلة التضحية والفتداء، وتدريب المسلم على الإحسان في كل شيء، قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليجد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته» ١٢٢، كما يدربه على الإحسان

(1) سورة الصافات، الآيات: 103 - 107

(3) سورة الصافات، الآية: 102

(2) سورة الصافات، الآية: 102

(4) رواه مسلم.

في العبادة لأن الهدي شعيرة تعبدية حينما يقوم بها المسلم يكون في عبادة أمر أن يحسن فيها، قال صلى الله عليه وسلم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فهو يراك»⁽¹⁾، والقيام بهذه الشعيرة التعبدية بقدر ما يدرب المسلم على الإحسان يدرسه على مراقبة الله عز وجل واستحضار معيته، وهذا الشعور يحفزه المسلم على العبادة وإتقانها وإخلاصها وتزيينها والتفنن في أدائها بالإحسان ومراقبة الله فيها كما علمته هذه الشعيرة العظيمة.

(1) رواه البخاري

المبحث الثاني رمي الجمرات

إن هذه الشعيرة الجليلة كغيرها من شعائر الحج جعلت هي الأخرى لذكر الله عز وجل، قال صلى الله عليه وسلم: «إنما جعل الطواف والسعي ورمي الجمار لذكر الله»⁽¹⁾، ومن مقاصد هذه الشعيرة العظيمة تذكير المسلم بقصة نبي الله إبراهيم مع الشيطان الرجيم، ومن معاني هذه الشعيرة أن رمي الجمار دلالة على سخط الرامي وغضبه وعلى إهائته واحتقاره للذي يرمى، فلقد: «عرض إبليس لسيدنا إبراهيم عليه السلام في مكان رمي الجمار عند جمرة العقبة، فرماه بسبع حصوات، ثم عرض له عند الجمرة الثانية، فرماه بسبع حصوات، ثم عرض له في الثالثة، فرماه بسبع حصوات»⁽²⁾، وهكذا يصبح رمي الجمرات دلالة على الاقتداء بهدي رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وتأس بسنة أبينا إبراهيم عليه السلام من جهة.

كما أنه دلالة على إعلان العداء الأبدي للشيطان الرجيم من جهة أخرى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾⁽³⁾، فلسان حال الحاج وهو يرمي الجمرات يقول: لا طاعة للشيطان بعد اليوم، بل حرب معلنة بينه وبين عدوه الحقيقي، فكلما أراد الشيطان غوايته، يتذكر الحاج رمي الجمرات، فلا يطيعه ولا يخضع لوساوسه ولا يستسلم له في مستقبل أيامه وقد كان بالأمس يرميه بالحجر. فرمي الجمرات دليل على إعلان الحرب على الشيطان الرجيم والعداء له ومقاومة وساوسه والتخلص من نزغاته على مدى الحياة.

ولذلك فالحاج وهو يرمي الجمرات عليه أن يرميها بقلبه وعقله ووجدانه قبل يده، ولهذا الأمر شرع التكبير في الرمي وبكل هدوء وسكينة واطمئنان حتى يعي الحاج معانيه ودلالاته ومقاصده العظيمة. أما الحاج الذي يعتقد أنه يرمي الشيطان في ذلك المكان بالذات، فالشيطان لا ينتظر هناك عند الجمرات لكي ترميه الآلاف المؤلفة

(1) رواه أبو داود

(2) البيضاوي، تفسير البيضاوي، تحقيق عبد القادر عرفات، دار الفكر، بيروت، 1996 ج5، ص: 2

(3) سورة فاطر، الآية: 6

من الحجاج بالحجر، فلو كان الأمر كذلك لانتهى أمر الشيطان منذ القديم، وما الزحام والمضايقة وأذية الآخرين وخاصة الضعفاء والعجزة والنساء أثناء رمي الجمرات إلا نتيجة هذا الفهم المسيطر على العقول.

وهذا الاعتقاد السائد عند بعض الحجاج، لأن كل حاج يحمل هذا الاعتقاد الفاسد وهذا الفهم الخطأ لمقاصد هذه الشعيرة العظيمة يريد أن يتخلص من الشيطان الرجيم وينتقم منه وبكل الوسائل، فتجد من يرمي بأكثر من حصاة وبأحجام كبيرة مخالفة لما أمرت به السنة المطهرة، وربما رمى بالأخشاب والأعواد وبالأحذية وغير ذلك، وقد نسي أن الشيطان ليس هذا محله، إنما مكانه في الإنسان نفسه، قال صلى الله عليه وسلم: «الشيطان يجري في ابن آدم مجرى الدم»⁽¹⁾، وعلى المسلم أن يحاربه في نفسه من خلال مجاهدتها ومخالفتها وكبح جماحها عن المعاصي وعن كل أنواع الشر، وهذا هو المقصد من هذه الشعيرة الجليلة التي تعلم المسلم كيف يحارب عدوه الحقيقي الملاصق له همه الوحيد هو الغواية والضلال والتزغ والوساوس، وتذكره بحربه الدائم ومعركته المستمرة مع هذا العدو الملاحق له أينما حل وارتحل حتى لا يخضع ويستسلم له، بل يخالفه ويستعيد بالله منه، ويستعين بالله عليه.

ولأن للشيطان صوراً وأشكالاً ومداخله متنوعة، فقد تنوعت الجمرات بين كبيرة ووسطى وصغيرة دلالة على هذا التنوع لمداخل الشيطان ووساوسه، فالحاج حينما يرمي كل هذه الجمرات فهو يتصدى لكل هذه المداخل ويردها بقوة إيمانه وعقيدته وتوحيده لله الواحد الأحد، فكلما هم بمعصية أو تكاسل في طاعة الله تذكر رمي الجمرات بمختلف أشكالها فيحجم عن المعصية ويتبعد عن ما يغضب الله عز وجل.

وهذا درس بليغ تعلمنا إياه هذه الشعيرة العظيمة من خلال معانيها ودلالاتها ومقاصدها التي تهدف إلى عصمة الإنسان وتحصينه من نزغات الشيطان ومن كل وساوس الشر التي تسعى إلى غوايته وتضليله، فالحاج وهو يرمي هذه الجمرات بيده ويكبر بلسانه، يمثل هذه المعاني بقلبه وروحه ووجدانه فيستفيد من هذه المعاني الجليلة والدلالات النبيلة والمقاصد العظيمة التي من أجلها شرعت هذه الشعيرة الربانية.

فمن مقاصد رمي الجمرات بأشكاله المتنوعة لزوم نفي الشر من الأرض وتحقيق الخير وتعميمه في الأرض، فإذا كان الطواف حول البيت دليلاً على الخير وعلى السير في طريقه من خلال طواف الحاج حول مركز واحد هو الكعبة المشرفة.

ففي شعيرة الرمي يرمي الحاج ثلاث جمرات كلها تدل على الشر، مما يعني أن طريق الله واحد، في حين أن طرق الشيطان متعددة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽¹⁾، فمع كل رمية حصاة وتكبير يؤكد المسلم عهده لله تعالى بأن يرمي الشر والشيطان ولا يتبع طريقهما، بل يبقى وفيا لعقيدته ثابتاً عليها، شعاره وهو يرمي ويكبر، أن الله أكبر من كل شيء وفوق كل شيء.

وهكذا يتعلم المسلم من رمي الجمرات دروساً تربوية من خلال معانيها ودلالاتها ومقاصدها، لتكون له بعد ذلك ترجمة عملية وواقعية في حياته مع نفسه ومع أسرته ومع مجتمعه وأمه، ليبدأ حياة جديدة ملؤها الإقبال نحو الخير وأهله والثبات في طريقه والابتعاد عن طريق الشر وهجر وساوس الشيطان الرجيم والإعراض عن نزغته وهمزه. ولكن ومع كامل الأسف كم من حاج يرمي الجمرات ويظن أنه يرمي الشيطان وقد تمكن الشيطان من قلبه، فما أكثر معاصيه وما أشد فسقه وشروره، ولو استشعر هذه المعاني لعلم أنه في أمس الحاجة لرميه والاستعاذة منه قبل أن يرمي تلك الحصوات مجرد رمي فقط.

فهذه الجمرات ما هي إلا شعيرة دينية جعلها الله عز وجل قصد التعبد والطاعة والتقرب إليه، وهي دليل على التخلص من كل أنواع الشر وليس كما يسميها كثير من الناس بالشياطين وينعتون الجمرة الكبرى بالشيطان الكبير والوسطى والصغرى بأبناء الشيطان الكبير، ومن ثم فهم يرمون هذه الجمرات حسب هذا الاعتقاد الفاسد، فتجدهم يرمون الجمرات بشدة وعنف وصراخ وسب وشتم، والواجب في هذا المكان وفي هذه الشعيرة الربانية أن يؤديها المسلم بخشوع واطمئنان واستحضار لنية العبادة والتقرب إلى الله عز وجل بالذكر والدعاء بأن يعصمه الله من الشيطان الرجيم ويخلصه من وساوسه ويعينه عليه ويقويه ويحصنه منه.

المبحث الثالث

التحلل من الإحرام

يعتبر التحلل من الإحرام ولادة جديدة للمسلم وخروج جديد إلى الدنيا وزينتها وزخرفها بعدما عرف حقيقتها وخبر قيمتها.

إنها بداية جديدة وانطلاقة جديدة في الرحلة إلى الله سبحانه وتعالى بفطرة نقية طاهرة وبعقيدة صحيحة صلبة وبإيمان قوي وبيقين كامل، بعدما غفرت ذنوبه وتعلم كيف يطيع الله سبحانه وتعالى ويتقرب إليه بأنواع من أعمال البر والتقوى، وبعدها أعلن بطوافه حول البيت على بيعته لله والسير على صراطه المستقيم، وبصلاة ركعتين خلف مقام إبراهيم بقربه من الله، فلا يريد أن يتعد عنه منذ ذلك الوقت، وبشربه ماء زمزم عن ارتوائه بمعاني التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وبسعيه بين الصفا والمروة عن توكله على الله وثقته بما عنده، وبحلوله بمُنَى عن أمنيته في رضوان الله وهي أقصى ما يتمناه كل مسلم، وبوقوفه في عرفات عن فقره واحتياجه لله رب العالمين وبنزوله أو مبيته بمزدلفة عن فرحه واستبشاره بمغفرة الله عز وجل له، وبرمي الجمرات عن عدائه للشيطان الرجيم ومخالفته له مدى الحياة، وبنحره لهدية عن تشبعه بمعاني التضحية في سبيل الله والإحسان في عبادته، وبالحلق أو التقصير عن طرد كل ما يفسد عليه فكره من عقائد وخرافات وأفكار مضللة.

وها هو الآن يتحلل ليستعد لحياة جديدة، ملؤها الطاعة والعمل الصالح والعيش في ظل هذه المعاني العظيمة والدلالات النبيلة والمقاصد الجليلة حتى يلقي الله عز وجل وهو على ذلك.

إن هذه الثقافة التي نحن بصدد الحديث عنها والتي تجمع بين العبادة والأخلاق والفن هي التي تحوّل بين الإنسان وبين عودته إلى ما كان عليه من البعد عن الله تعالى والتفريط في حقه وترك الفرائض وإهمالها، وتعصمه من الوقوع في المعاصي، وهذا من علامات قبول الحج ودليل على الحج المبرور الذي ليس له جزاء إلا الجنة، الحج الذي يكفر الذنوب ويحو الخطايا، أما حينما تغيب هذه الثقافة

وتنظمس هذه المعاني والدلالات والمقاصد العظيمة، فإن الحاج سوف يعود إلى ما كان عليه من قبل، وكأنه لم يحج ولم يعتمر مطلقاً، وهذا من علامات عدم قبول الحج ودليل على الحج غير المبرور، وفقني الله وإياك أخي الحاج أختي الحاجة هده، وجعل عملنا في رضاه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

خاتمة

من كل ما سبق يمكن القول أن الحج عبادة جسدية وروحية ومالية وهو من أعظم العبادات وأجلها تهدف مناسكه وشعائره إلى ترسيخ عقيدة التوحيد في نفس المسلم وتحرص على تقويتها، لأن العقيدة الصحيحة السليمة من الشرك ومظاهره أساس في بناء الشخصية المسلمة المتوازنة والمتكاملة والقوية التي تعتقد أن لا معبود بحق سوى الله الواحد الأحد، وبأنه هو الرزاق وهو المعطي وهو المانع وهو المحيي وهو المميت.. إلى غير ذلك من معاني التوحيد في الربوبية وفي الألوهية وفي الأسماء والصفات.

كما يمكن القول إن الحج عبادة يولد من خلالها الإنسان من جديد ويُمنح فرصة جديدة تغفر فيها الذنوب وتعتق فيها الرقاب، وهذه نعمة من الله عز وجل وعلى المسلم أن يشكره عليها بصرفها فيما يرضيه وبتعظيم شعائره وفق شريعته.

والحج كذلك مدرسة يتعلم فيها المسلم مكارم الأخلاق وأطيب الصفات وأحسنها التي تليق به كمسلم كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً. وهو أيضاً فرصة عظيمة للتدريب على دوام الطاعة وتعظيم شعائر الله واستحضار نية التقرب والعبادة في كل أمور الحياة وشؤونها، كما أنه فرصة كذلك للتمرين على الانضباط والنظام والجدية.

فالحاج يتدرب ويعيش أعمالاً محددة ومناسك مؤقتة بأوقات معلومة حتى يكون هذا ديدنه في حياته كلها، جادا ومنظما ومنضبطا، يحذر تضييع ساعات حياته فيما لا ينفع، كما يحرص على ساعات الحج الغالية النفيسة أن تضيع في لغو أو هو أو فسوق أو جدال، لأن أيام الحج معدودات والأعمال فيه عظيمة والثمرة غالية هي مغفرة الذنوب جميعا والفوز بالجنة، وهذا ما يتمناه كل مسلم يطوف بالبيت ذاكرًا ويسعى بين الصفا والمروة متوكلاً ويقف بعرفة مبتهلاً، ويقيم في منى متمنياً ويصلي فيها متعبداً ويبعث في مزدلفة نادماً ويرمي الجمرات مقتدياً وينحر هديه متأسياً ويحلق شعر رأسه امتثالاً وطاعة لله رب العالمين.

وأخيراً وليس آخراً فقد علمت أخي الحاج وعلمت أختي الحاجة مما سبق ذكره في

هذا الكتاب أن للحج ثقافة تقوم على المعرفة الصحيحة بمناسك الحج ومعانيها ودلالاتها ومقاصدها، كما تقوم هذه الثقافة على العبادة الخالصة والأخلاق الحسنة والأداء الحسن والتزيين والتفنن فيه. فثقافة الحج تجمع بين عبادة الجسد والروح، بين توجه هذا وتوجه تلك، وبين حركة الجوارح وحركة النفس.

أخي الحاج أخي الحاجة أسأل الله تبارك وتعالى لكما التوفيق والسداد وأن يجعل حجكمما حجاً مبروراً وأن يتقبل منا هذا العمل ويجعله في ميزان حسناتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المراجع

- القرآن الكريم برواية ورش
- التصوير الفني في القرآن: لسيد قطب
- في ظلال القرآن: لسيد قطب
- لسان العرب: لابن منظور
- مختصر منهاج القاصدين: لأحمد بن قدامة المقدسي
- العبادة في الإسلام: للدكتور يوسف القرضاوي
- الحج ودوره الهام في حياة الإنسان: لرابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية
- المنهج لمريد العمرة والحج: للشيخ محمد صالح العثيمين
- المنهاج في يوميات الحاج: للشيخ خالد بن عبد الله بن ناصر
- مبادئ الإسلام: لأبي الأعلى المودودي
- بيان ما يفعله الحاج والمعتمر: لعبد الله الفوزان
- الفقه المالكي: للحبيب بن الطاهر
- الفوائد: ابن قيم الجوزية
- الصيام والتربية على التقوى: لعبد السلام الأحمر
- تذكرة الدعاة: للبهي الخولي.
- من كنوز السنة: لمحمد علي الصابوني
- أدب الدنيا والدين: للإمام الماوردي
- فقه السيرة: للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
- فقه السنة: للسيد سابق
- الحج المبرور: لمحمد بن جبريل زينو
- صيد الخاطر: لابن الجوزي
- صفوة التفاسير: لمحمد علي الصابوني
- قصص الأنبياء: لابن كثير
- ثقافة الدعاة: للدكتور يوسف القرضاوي
- مناسك الحج والعمرة وفق المذهب المالكي: لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية
- أحكام الزيارة وآدابها: لعبد العزيز بن عبد الله بن باز
- دليل الحاج والمعتمر: للشيخ صالح محمد جمال

فهرس الموضوعات

5	مقدمة:
7	الفصل الأول: الحج، الثقافة، العبادة، الأخلاق، الفن.....
9	المبحث الأول: الحج تعريفه ومميزاته
15	المبحث الثاني: الثقافة تعريفها وأهميتها
19	المبحث الثالث: العبادة تعريفها وطبيعتها
23	المبحث الرابع: الأخلاق تعريفها ومظاهرها.....
27	المبحث الخامس: الفن تعريفه وتجلياته
31	الفصل الثاني: الطهارة، صلاة ركعتين، الإحرام، الميقات والتلبية.....
33	المبحث الأول: الطهارة.....
35	المبحث الثاني: صلاة ركعتين.....
37	المبحث الثالث: الإحرام
41	المبحث الرابع: الميقات
43	المبحث الخامس: التلبية
	الفصل الثالث: الطواف، الصلاة خلف مقام إبراهيم. شرب ماء زمزم،
45	السعي والخلق أو التقصير
47	المبحث الأول: الطواف حول الكعبة.....
55	المبحث الثاني: صلاة ركعتين خلف مقام إبراهيم
57	المبحث الثالث: شرب ماء زمزم
59	المبحث الرابع: السعي بين الصفا والمروة.....
65	المبحث الخامس: حلق شعر الرأس أو تقصيره.....
69	الفصل الرابع: الوقوف بعرفة، الإقامة بمنى والتزول بمزدلفة أو المبيت بها.....
71	المبحث الأول: الوقوف بعرفة.....
75	المبحث الثاني: الإقامة بمنى
77	المبحث الثالث: التزول بمزدلفة أو المبيت بها.....

79.....	الفصل الخامس: الهدى، رمى الجمرات والتحلل من الإحرام.
81.....	المبحث الأول: الهدى.
85.....	المبحث الثاني: رمى الجمرات.
89.....	المبحث الثالث: التحلل من الإحرام.
91.....	خاتمة
93.....	المراجع.